الباب الثاني
العلوم المتعلقة بتاريخ القرآن

وفيه سبعة علوم:

1 ــ علم نزول القرآن.

2 ــ علم أول ما نزل وآخر ما نزل.

3 ــ علم أسباب النزول.

4 ــ علم المكي والمدني.

5 ــ علم ترتيب سور وآيات القرآن.

6 ــ علم جمع القرآن وكتابته.

7 ــ علم الناسخ والمنسوخ.

obeikandl.com

obeikandl.com

1 ـــ علم نزول القرآن (*)

حديث نزول الوحي بالقرآن:

جاء في الحديث الصحيح: «أولُ ما بُدِئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم، فكان لا يَرى رؤيا إلّا جاءت مثل فلق الصبح، ثم حُبِّبَ إليه الخلاء، وكان يخلو بغار حراء، فيتحنّث فيه ـ وهو التعبُّد ـ الليالي ذوات العدد، قبل أن ينزعَ إلى أهله ويتزود لمثلها، حتى جاءه الحق وهو في غار حراء فجاءه الملك فقال: **اقرأ**، قال: **ما أنا بقارئ**، قال: **فأخذني فغطّني**[1] **حتى بلغ مني الجَهْدَ ثم أرسلني** فقال: **اقرأ**، قلت: **ما أنا بقارىء**، **فأخذني فغطّني الثانية حتى بلغ مني الجَهْد ثم أرسلني**، فقال: **اقرأ**، قلت: **ما أنا بقارىء**، **فأخذني فغطّني الثالثة**، فقال: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤﴾ [العلق: 1-4]. فرجع بها رسول الله ﷺ يرجف فؤاده. فدخل على خديجة بنت خُوَيلد فقال: **زمّلوني**[2] **زمّلوني**، فزمّلوه حتى ذهب عنه الرَّوْع[3]. فقال لخديجة ـ وأخبرها الخبر ـ: **لقد خشيت على نفسي**. فقالت له: كلا والله ما يخزيك الله أبداً، إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيفُ، وتعين على نوائب الحق، فانطلقت

(*) للتوسع في هذا النوع انظر: الفهرست لابن النديم ص: 40، الكتب المؤلفة في نزول القرآن، و«**المرشد الوجيز**» لأبي شامة ص: 9 – 47، الباب الأول في البيان عن كيفية نزول القرآن وتلاوته، و«**البرهان**» للزركشي 1/ 320، و«**الإتقان**» للسيوطي 1/ 118 – 142، النوع السادس عشر: في كيفية إنزاله. و«**مفتاح السعادة**» لطاش كبرى زادة 2/ 353. علم معرفة كيفية إنزال القرآن، و«**كشف الظنون**» لحاجي خليفة 2/ 1525، علم كيفية إنزال القرآن، و«**أبجد العلوم**» للقنوجي 2/ 455، علم كيفية إنزال القرآن، و«**مناهل العرفان**» للزرقاني 1/ 33 – 85، المبحث الثالث في نزول القرآن، و«**معجم الدراسات القرآنية**» للصفار ص: 53 – 59، و«**مباحث في علوم القرآن**» لصبحي الصالح: 15 – 62، الباب الأول: القرآن والوحي، و«**علوم القرآن الكريم**» للعتر، ص: 25.

(1) غَطّني: ضمّني وعصرني بقوة.

(2) زمّلوني: لُففوني بالثياب.

(3) الرَّوع: الفَزع.

به خديجة حتى أتت به وَرَقَةَ بن نوفل بن أسد بن عبد العُزّى، ابن عمّ خديجة، وكان امرءاً قد تَنَصَّر في الجاهلية، وكان يكتب الكتاب العبراني، فيكتب في الإنجيل بالعبرانية ما شاء الله أن يكتب، وكان شيخاً كبيراً قد عمي. فقالت له خديجة: يا ابن عمٍّ، اسمع من ابن أخيك. فقال له ورقة: يا ابن أخي ماذا ترى؟ فأخبره رسول الله ﷺ خبر ما رأى. فقال له وَرَقَة: هذا الناموس[1] الذي نزّل الله على موسى، يا ليتني فيها جَذَعٌ[2]، ليتني أكون حياً إذ يُخرِجك قومك. فقال رسول الله ﷺ: «**أوَ مُخْرِجِيَ هم؟!**» قال: نعم، لم يأتِ رجل قط بمثل ما جِئْتَ به إلا عُودي، وإن يُدركْني يومُك أنصرْك نصراً مُؤَزَّراً. ثم لم ينشب[3] ورقة أن توفي وفتر الوحي.

قال ابن شهاب: وأخبرني أبو سلمة بن عبد الرحمٰن، أن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: ـ وهو يحدّث عن فترة الوحي ـ فقال في حديثه: «بينما أنا أمشي سمعتُ صوتاً من السماء فرفعتُ بصري فإذا المَلَكُ الذي جاء في حِرَاء جالسٌ على كرسي بين السماء والأرض، فَرُعِبْتُ منه فرجعتُ، فقلت: زَمِّلُوني زَمِّلوني، فأنزل الله عَزَّوَجَلَّ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ١ قُمْ فَأَنذِرْ ٢﴾ [المدثر: 1-2] إلى قوله: ﴿وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ﴾ [المدثر: 5]. **فَحَمِيَ الوحيُ وتواتر**»[4].

لقد شاء الله أن يظلّ الوحي مُتجاوباً مع الرسول ﷺ يُعَلِّمه كل يوم شيئاً جديداً، ويرشده ويهديه، ويُثَبِّته ويزيده اطمئناناً، ومتجاوباً مع الصحابة يربّيهم ويصلح عاداتهم ويجيب عن وقائعهم، ولا يفاجئهم بتعاليمه وتشريعاته، فكان مظهر هذا التجاوب نزوله مُنَجَّماً ـ أي مُفَرَّقاً ـ «بحسب الحاجة: خمس آيات، وعشر آيات وأكثر وأقلّ. وقد صحّ نزول عشر آيات في قصة «**الإفك**»[5] جملة، وصحّ نزول عشر آيات من أول سورة «المؤمنين»[6] جملة، وصح نزول ﴿غَيْرُ أُوْلِي ٱلضَّرَرِ﴾[7] وحدها ـ وهي بعض آية ـ

(1) الناموس: صاحب السرّ.
(2) جذَع: شاب.
(3) لم يَنْشَبْ: لم يلبث.
(4) الحديث مُتفق عليه، أخرجه البخاري في أول «**صحيحه**»، ومسلم في «**صحيحه**» 1/ 57، كتاب الإيمان.
(5) هذه الآيات العشر في سورة النور [11 – 21] وفيها يبرىء الله السيدة عائشة أم المؤمنين، الصديقة بنت الصديق من الإفك المبين والبهتان العظيم. وقصة الإفك مشهورة في كتب السيرة والتفسير.
(6) من أول قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ﴾ إلى قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يَرِثُونَ ٱلْفِرْدَوْسَ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: 11].
(7) سورة النساء: 95، وأول الآية: ﴿لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

وكذا قوله: ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً﴾[1] إلى آخر الآية، نزلت بعد نزول أول الآية»[2].

على هذا المنوال ظلّ القرآن ينزل نجوماً ـ أي دفعات ـ ليقرأه النبي ﷺ على مكث ويقرأه الصحابة شيئاً بعد شيء، يتدرَّج مع الأحداث والوقائع والمناسبات الفردية والاجتماعية التي تعاقبت في حياة الرسول ﷺ خلال ثلاثة وعشرين عاماً على الأصح، تبعاً للقول بأن مُدّة إقامته ﷺ في مكة بعد البعثة ثلاثة عشرة سنة. أما إقامته بالمدينة فهي عشر سنين اتفاقاً: فعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بُعث رسول الله ﷺ لأربعين سنة، فمكث بمكة ثلاث عشرة سنة يُوحَى إليه، ثم أُمر بالهجرة عشر سنين، ومات وهو ابن ثلاث وستين[3].

وقد بدأ نزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء الدنيا ـ كما قال الشَّعْبي ـ[4]: في ليلة القدر، ثم نزل بعد ذلك مُنجَّماً في أوقات مختلفة من سائر الأوقات»[5]. والشعبي يجمع في هذا الرأي بين قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾ [القدر: 1]. وقوله: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: 106]، وهو فهم سديد لا يتضارب مع إخبار الله بإنزال كتابه ﴿فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾، وفي ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ﴾، إذ يكون المراد أنّه تعالى ابتدأ إنزاله في ﴿لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ﴾ [الدخان: 3]، ووصف هذه الليلة بأنه ﴿لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ﴾ وهي إحدى ليالي رمضان، كما في قوله: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: 185]، ثم استمرّ نزوله نجوماً بعد ذلك، مُتدرجاً مع الوقائع والأحداث.

---

(1) سورة التوبة: 28 وأول الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾.

(2) «**الإتقان**» 1/ 73.

(3) «**صحيح البخاري**» 4/ 57، وانظر: «**البرهان**» 1/ 232، و«**الإتقان**» 1/ 68.

(4) الشَّعبي هو عامر بن شَراحيل، ويكنى أبا عمرو. أكبر شيوخ أبي حنيفة، وأحد المشهود لهم بالإمامة في الحديث والفقه. روى عن علي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وزيد بن ثابت، وجابر بن عبد الله، وغيرهم. وقال: إنه أدرك خمس مئة من الصحابة. وروى عنه الأعمش، وقتادة، وأبو الزناد، وغيرهم. توفي سنة 109 (الذهبي «**سير أعلام النبلاء**» 4/ 294).

(5) «**البرهان**» 1/ 228.

obeikandi.com

للقرآن ثلاث تنزّلات[1]:

ويحدّثنا القرآن عن نزوله في آيات كثيرة، نذكر منها في بحثنا هنا هذه الآيات:

﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ﴾ [البقرة: 185].

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾﴾ [الدخان: 3].

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ ﴿٣﴾﴾ [القدر: 1-3].

﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: 21-22].

وظاهر الآية الأولى يستدعي البحث، لما هو معلوم عند الجميع أن القرآن لم ينزل جملة واحدة، إنما نزل مُفرَّقاً، وقد تساءل عن ذلك الدارسون منذ العصر الأول، كما رُوِي عن ابن عباس: أنه سأله عَطِيّةُ بن الأَسْوَد فقال: وقع في قلبي الشكّ من قوله تعالى: ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ﴾ وقوله: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ﴾، وقد أُنزل في شوّالٍ، وفي ذي القَعْدَة، وفي ذي الحجّة، وفي المُحرَّم، وشهر ربيع! فقال ابن عباس: إنه أُنزِل في رمضان في ليلة القدر، وفي ليلة مباركة جملةً واحدة، ثمّ أُنزِل على مواقع النجوم ترتيلاً في الشهور والأيام»، رواه ابن أبي حاتم وابن مَرْدُويَه[2].

وقد تضافرت الأسانيد الصحيحة إلى ابن عباس تثبت قوله بنزول القرآن جملة واحدة إلى بَيتِ العِزّة في السماء الدنيا ليلة القدر في رمضان، وبهذا قال أكثر العلماء، وبذلك يكون للقرآن ثلاث تنزّلات.

1 ـ **التنزّل الأول**: نُزوله إلى اللوح المَحفوظ، كما نصّت الآية: ﴿بَلْ هُوَ قُرْءَانٌ مَّجِيدٌ ﴿٢١﴾ فِى لَوْحٍ مَّحْفُوظٍ ﴿٢٢﴾﴾ [البروج: 21-22]. واللوح المحفوظ عالم علوي عظيم جعله

(1) **«الإتقان»** للسيوطي 1/ 68، و**«البرهان»** للزركشي 1/ 229، وهو رأي الجمهور كما يذكر ابن حجر العسقلاني في **«فتح الباري»**.

(2) وهذا لفظ ابن مَرْدُويَه، انظر **«تفسير ابن كثير»** 1/ 310، و**«الإتقان»** 1/ 40.

الله تعالى من أعظم المظاهر الدالة على عظمة علمه تعالى وحكمته وقدرته النافذة في الأكوان، ويختصّ اللوح المحفوظ بكونه مشتملاً على تسجيل ما قضى الله تعالى وقدر ما كان وما سيكون.

قال الإمام أبو حيّان في تفسيره «**البحر المحيط**» في تفسير الآية: «واللوح المحفوظ هو الذي فيه جميع الأشياء» اهـ.

وهو من أسرار الغيب التي لم يطلعنا الله تعالى على حقيقتها وستظل كذلك في أستار الغيب.

2 ـ **التنزيل الثاني**: النزول إلى بيت العِزَّةِ في السماء الدنيا جملة واحدة، كما سبق عن ابن عباس.

3 ـ **التنزيل الثالث**: النزول على قلب النبي الكريم ﷺ مُنجَّماً في ثلاث وعشرين سنة.

ويرى كثير من العلماء تفسير آيات نزول القرآن في ليلة القدر وشهر رمضان على غير ما ذكرناه، وأن المُراد: ابتدأنا إنزاله في شهر رمضان، وفي ليلة القدر، كما هو مستعمل كثيراً في اللغة إطلاق «فعل» على ابتداء الفعل.

وكأن هذا الفريق يرى حديث ابن عباس تفسيراً من اجتهاده ورأيه، لأنه لم يأتِ مرفوعاً إلى النبي ﷺ في شيء من طرقه، ولا ورد عن أحد من الصحابة غير ابن عباس، وإن كان هذا التأويل غير ظاهر.

وقد يتساءل القارىء عن الحكمة من إنزال القرآن جملة واحدة ثم إنزاله مُنجَّماً بعد ذلك.

والحقّ أنه لم يَرِد لنا نصٌّ صريح يجلو لنا سر ذلك. لكن الباحث يتلمَّس باجتهاده حكمة لذلك، ومن ذلك ما يلي:

1 ـ تفخيم أمر القرآن وأمر مَن نزل عليه، وذلك بإعلام سكان السمٰوات السبع

أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم[1].

2 ـ سرٌّ يرجع لإعجاز القرآن، في ترتيب القرآن في النزول، ثم ترتيبه في المصحف، حيث ينظره جبريل في سماء الدنيا وهو على ترتيب المصحف، ثم يتنزل بآياته تباعاً على حسب الحوادث فتوضع كل آية في مكانها في المصحف وفق الترتيب في اللوح المحفوظ[2].

نزول القرآن مُنَجَّماً على قلب النبي الكريم

لقد صرّحت الآيات القاطعة بأن القرآن الكريم كلام الله المنزل من عند الله تعالى بلفظه ومعناه على قلب النبي ﷺ، لا تَصَرُّفَ لأحَدٍ في شيء منه ولا في حرف من حروفه.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّكَ لَتُلَقَّى ٱلْقُرْءَانَ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل: 6].

وقال: ﴿كِتَـٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَـٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: 1].

فالقرآن تلقاه النبي ﷺ من الله تعالى كما تشير كلمة «لدن»، وهو كلام الله كما صرحت الآية: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: 6].

لكن تنزيل القرآن على النبي ﷺ لم يكن دفعة واحدة، كما نزلت الكتب السابقة على الأنبياء دفعة واحدة، بل اختصّ الله تعالى هذا القرآن بأن أنزله مُنجّماً ـ أي: مفرقاً ـ بحسب المناسبات، واقتضاء الحال.

الحِكَمُ في نزول القرآن منجماً:

اختص القرآن الكريم من بين الكتب السماوية بأنه نزل مُفَرَّقاً على نجوم كثيرة كما ذكرنا، وقد أثار ذلك أعداء القرآن من المشركين واليهود وغيرهم، فتساءلوا لماذا لم ينزل القرآن جملة واحدة، كما نزلت الكتب التي قبله؟

(1) «**البرهان**» ج1، ص: 230، و«**الإتقان**» 1/ 40–41، وصرح بعزوه هذا إلى «**المرشد الوجيز**» لأبي شامة ص: 24.
(2) عن كتاب «**الوحدة الموضوعية**» 74.

obeikandl.com

وهذا سؤال تولّى الله تعالى الإجابة عنه في موضعين من قرآنه:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ٱلْقُرْءَانُ جُمْلَةً وَٰحِدَةً ۚ كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۖ وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا ﴿٣٣﴾﴾ [الفرقان: 32-33].

وقال أيضاً: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: 106].

فبيّن القرآن حِكَماً وأسراراً غَفَل عنها المُتطفّلون باقتراحهم، اقتضت نزول القرآن مفرَّقاً، وبالنظر إلى عبارات الآيات القرآنية نستطيع عرضها من خلال أربعة جوانب، يُستدل عليها من الآيات السابقة:

أولاً: تثبيت فؤاد النبي ﷺ وتقوية قلبه:

كما قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: 32].

فقد بُعِثَ الرسولُ ﷺ في قوم جُفاة شديدة عداوتهم، كما قال تعالى: ﴿وَتُنذِرَ بِهِۦ قَوْمًا لُّدًّا﴾ [مريم: 97]. وكانوا لا يكادون ينتهون من حملة أو مكيدة حتى يشرعوا في تدبير أخرى مثلها أو أشد أو أمرّ، فكانت تَنزُّلات القرآن بين الفَيْنَة والأخرى تُواسِيه وتُسَلّيه، وتَشُدّ أزرَه وعزيمته على تَحَمُّلِ الشدائد والمَكاره، لما فيها أولاً من تجديد الاتصال بالملأ الأعلى كلّما ادْلَهَمَّ الأمر أو نزل الخَطْبُ، مما يُثْلِج القلبَ ويَشْرَح الصدر. ثم ما هنالك من التذكير بالأسوة بالأنبياء السابقين وأحوالهم مع أقوامهم كما قال تعالى: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [هود: 120].

ويستطيع القارىء تبيُّن هذه الحكمة بسهولة ويُسْر، لدى مراجعته قصص القرآن، كأن يقوم باستعراض سريع لسورة هود مثلاً، وما فيها من بيان مواقف الأمم من أنبيائهم، وتحمّل الأنبياء والمؤمنين معهم وصبرهم، حتى ينزل الله تعالى نقمته على أعدائهم، ويُكرم المؤمنين بالفوز والنجاة، ممّا له أثره البالغ في تثبيت المؤمنين وزلزلة قلوب الكافرين لتكرار ذلك في كل موقف، حتى ضَرَبَتْ الأمة الإسلامية المثل البالغ، حيث تعرضت لهَزّات وأعاصير أباد جزء منها أمماً وأذاب شعوباً وحضارات، فثبتت الأمة الإسلامية أمام ذلك كله.

بل سجّلت أمة الإسلام في هذا المضمار ما هو معجز، حيث إنها حافظت على

obeikandl.com

نفسها ودينها وحضارتها ليس هذا فحسب، بل امتصت القوى التي جاءت لإفنائها وجعلتها هي تتحوّل لتكون من أسباب قوّتها، كما حصل من الانقلاب الكبير للصليبيين بعد احتكاكهم بالمسلمين، والعبرة الأكبر في التتار الذين دخلوا الإسلام واعتنقوه، مما يُبْرز لنا أهمية التربية الإسلامية، وأسلوبها في غرس هذه العوامل بوسائل كثيرة، منها أسلوب قصص الأمم السابقة، ولهذا ندرك أيضاً موقع هذا الاختتام العظيم لسورة هود بهذه الآيات: ﴿وَكُلًّا نَّقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلرُّسُلِ مَا نُثَبِّتُ بِهِۦ فُؤَادَكَ ۚ وَجَآءَكَ فِى هَـٰذِهِ ٱلْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٢٠﴾ وَقُل لِّلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ٱعْمَلُوا۟ عَلَىٰ مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَـٰمِلُونَ ﴿١٢١﴾ وَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ [هود: 120-123].

ثانياً: مواجهة ما يطرأ من أمور أو حوادث تَمَسُّ الدعوة:

كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَـٰكَ بِٱلْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان: 33]. وهذه حكمة جليلة لها أثرها البالغ في نجاح الدعوة، لمواجهة الوحي نفسه للطوارىء والمُلِمّات، ومن أهم ذلك ما يثيره المبطلون من الاعتراضات أو الشبهات، وهو الأصل الذي صرّحت به الآية الكريمة، أي لا يأتونك بسؤال عجيب أو شبهة يعارضون بها القرآن بباطلهم العجيب إلا جئناهم بما هو الحق في نفس الأمر، الدامغ له، وهو أحسن بياناً وأوضح، وأحسن كشفاً لما بُعِثَتَ له[1]، وكأن جبريل واقف بالمرصاد يُشرِعُ سهمَ القرآن في صدور المشركين كلما أجمعوا أمرهم وألقوا سؤالهم أو حزَّبوا لنصرة الباطل أمثالهم.

هذا أُبيّ بن خلف من رؤساء الشرك جاء إلى النبي ﷺ وفي يده عَظْمٌ رَمِيمٌ وهو يُفَتّته ويذرّيه في الهواء وهو يقول: يا محمد، أتزعم أن الله يبعث هذا؟ قال: «**نعم، يُميتُكَ الله تعالى، ثم يَبْعَثُك، ثم يَحشُرُكَ إلى النار**»، ونزلت هذه الآيات من آخر سورة يسٓ[2]:

﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلْإِنسَـٰنُ أَنَّا خَلَقْنَـٰهُ مِن نُّطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُّبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِىَ خَلْقَهُۥ ۖ قَالَ مَن يُحْىِ ٱلْعِظَـٰمَ وَهِىَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُم مِّنَ ٱلشَّجَرِ ٱلْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَآ أَنتُم مِّنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾﴾ [يسٓ: 77-80]

---

(1) «**تفسير ابن كثير**» 6/ 118، و«**أنوار التنزيل**» للبيضاوي (**مع حاشية الكازروني**) 4/ 4.

(2) «**تفسير ابن كثير**» 6/ 579، وفي رواية أن العاص بن وائل فعل ذلك، وصححه الحاكم كما في «**لباب النقول**» ص: 607.

أي استبعد إعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة ـ الذي خلقه من نطفة والذي خلق السمٰوات والأرض ـ للأجساد والعظام الرميمة ونسي نفسه، وأن الله خلقه من العدم، وهو أعظم من الحشر الذي استبعده، ولهذا قال: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا ٱلَّذِىٓ أَنشَأَهَآ أَوَّلَ مَرَّةٍۖ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

كذلك كانوا يلقون عليه أسئلة اختبار للتثبُّت من نُبُوَّتِه، كما رُوِيَ في سبب نزول سورة الكهف، أنّ قريشاً سألت اليهود في المدينة عن النبي ﷺ، فقال لهم أحبار اليهود: سلوه عن ثلاث، فإن أخبركم بِهِنَّ فهو نبيٌّ مرسل... فنزلت في الإجابة عن الأسئلة الثلاثة سورة الكهف: بشأن الفتية أصحاب الكهف، وبقصة ذي القرنين، ونزلت آية الإسراء: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: 85] (1).

وقد جاء مع هذا الجواب التوجيه الرباني للنبي ﷺ يعتب عليه أن قال لهم: «**أُخبِرُكم غداً**»، ولم يَسْتَثْنِ، أي لم يَقُل (إن شاء الله) فأبطأ عليه الوحي خمسة عشر يوماً، وشقّ ذلك على النبي ﷺ، ونزل عليه الوحي بالإجابات، ونزل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُۚ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾﴾ [الكهف: 23-24].

وكان المسلمون كذلك يسألون عما يهمّهم من أمر دينهم، كالأسئلة عن النفقة: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَۗ﴾ (2) [البقرة: 219]. وعن الأهلّة: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَهِلَّةِۖ قُلْ هِىَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَٱلْحَجِّۗ﴾ [البقرة: 189]. والحيض: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِۖ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِۖ﴾ [البقرة: 222].

ولا شك أن الأسئلة لم تكن في وقت واحد بل كانت في أوقات متفرّقة مختلفة فكان لا بدّ من نزول القرآن منجّماً.

ويدخل في هذا الجانب متابعة الوقائع والأحداث في وقتها ينزل الوحي بشأنها ببيان التوجيه الإلهي، كما في غزوة بدر ومسألة الأنفال، ومصيبة المسلمين يوم أُحُدٍ

---

(1) رواه ابن إسحاق كما في «**تفسير ابن كثير**» 5/ 132 - 133.
(2) أي الفضل الزائد.

obeikandi.com

ونزول القرآن بالدروس والعبر التي نجعت فيهم مدى حياتهم مع تسلية أحزانهم ومواساتهم.

أو ينزل القرآن ببيان الحكم الإلٰهي كما في آيات الزنا والظِّهار، والعِدَّة والأيمان. . .

وهذه غزوات الرسول الكريم وحدها مثل غزوة بدر وأُحُد والخندق وتبوك وحُنين مثال ناطق بهذه الحكمة الجليلة التي تقتضي نزول القرآن منجماً في مناسبتها فكان لا بد للقرآن أن ينزل مُنَجَّماً ﴿وَبِٱلْحَقِّ أَنزَلْنَٰهُ وَبِٱلْحَقِّ نَزَلَ﴾ [الإسراء: 105].

ثالثاً: تَعَهُّد هذه الأمة التي أنزل عليها القرآن:

وذلك لصياغتها على النهج الإسلامي القرآني علماً وعملاً، فكراً واعتقاداً وسلوكاً، تخلُّقاً وعُرفاً.

كما قال تعالى: ﴿وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [الإسراء: 106].

ومن مظاهر هذا الجانب أنهم كانوا قوماً أُمِّيِّين لا يُحْسِنون القراءة والكتابة فكانت الذاكرة عمدتهم الرئيسة، فلو نزل القرآن جملة واحدة لعجزوا عن حفظه، فأنزل الله قرآنه مفرقاً ليقرأه الرسول ﷺ عليهم على تمهّل فيسهل عليهم حفظه ويتيسَّر فهمه ودرسه كذلك.

ثم إن العرب الذين خُوطِبوا بالقرآن أولاً قبل سائر الأمم كانت لها عقائد راسخة وعادات موروثة وأخلاق مأثورة عن أسلافهم يتباهون بها ويتفاخرون، ويتبارون في التمسُّك بها ويتسابقون، على عَنْجَهِيَّة لم تعرفها أمة غيرهم إذ ذاك، فكان كما قال الإمام مَكّيِ بن أبي طالب رحمه الله[1]: «أَدْعَى إلى قَبُولِهِ إذا نزل على التدريج، بخلاف ما لو نزل جملة واحدة فإنه ينفر من قبوله كثير من الناس، لكثرة ما فيه من الفرائض والمناهي».

لهذا سلك القرآن الكريم معهم مسلك التربية الحكيمة، وهو مسلك التدرُّج في

(1) في كتابه «**الناسخ والمنسوخ**»، انظر «**الإتقان**».

obeikandi.com

التشريع من حُكْم إلى حُكْم. والتأني في نقلهم من حال إلى حال، ومن خُلُقٍ إلى خلق، وهكذا بلغ الغاية في تخلّيهم عن عقائدهم الباطلة، وعاداتهم المسترذلة، وسما بهم إلى عقائد القرآن وأخلاقه وعباداته وأحكامه ونظامه الشامل.

ويُصوّر لنا هذه الحكمة التربوية ما أخرجه البخاري[1] عن عائشة رضي الله عنها قالت: «إنما نزل أول ما نزل منه سورة من المُفَصَّل فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر، لقالوا: لا ندع الخمر أبداً، ولو نزل: لا تزنوا، لقالوا: لا ندع الزنا أبداً».

وهكذا كانت تنزل الفرائض: تنزل الفريضة حتى إذا تمكنت في النفوس نزلت الأخرى، وكذلك المحرّمات، بل إن التدرج في أحيان كثيرة كان يقع في الحكم الواحد، مثل فرائض النفقات، والجهاد، وحقوق المرأة، والميراث، وتحريم الخمر، حتى أثمرت تلك التربية الربانية ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110]؛ وحتى كان في وقائع امتثالها ما تباهي أرقى الدول في هذا العصر في محاولتها إصلاح مجتمعها، وما قصة تحريم الخمر المشهورة ومحاولة بعض الدول الكبرى في معالجتها ببعيدة عنّا، فقد كان الفشل ذريعاً بل تسبّب باستفحال المشكلة، حتى انجرّ الكثيرون إلى الإمعان والزيادة في الشراب من الأنواع الأشد رداءة، ممّا يعطينا العبرة في إعجاز التربية القرآنية، التي كان التدرّج في نزول الوحي بالأحكام من أنجع وسائلها.

رابعاً: التنبيه على وجه من إعجاز القرآن:

وإليه الإشارة بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِۦ فُؤَادَكَ﴾ [الفرقان: 32] فعبّر بقوله ﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي مثل ذلك التنزيل العجيب الشأن البالغ الغاية في الحكمة والإحكام، ثم تذييل الآية بقوله: ﴿وَرَتَّلْنَٰهُ تَرْتِيلًا﴾ وأصل الترتيل: التنضيد.

وكذلك يشير إليه قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا﴾ [الإسراء: 106].

بيان ذلك أننا إذا ما لاحظنا أن القرآن نزل مفرّقاً على حسب أحداث ووقائع لم تكن على ترتيب أو نسق معين، ثم قد وُضعت كل آية أو مجموعة آيات نزلت في مكان خاص بها من سورة يأمر الوحي بوضع الآية أو الآيات فيها، ويتناول ذلك عدة

(1) في صحيحه، كتاب: فضائل القرآن، ج6، ص: 185.

سور في آن واحد، حتى إن سورة البقرة كانت أول ما نزل من القرآن في المدينة واستمر نزولها يتتابع فكان فيها آخر ما تنزل من القرآن قاطبة، وهي أطول سورة في القرآن.

ثم يقرأ القارىء المتدبر هذا القرآن بعد ذلك فيجد الترابط المحكم والاتساق العجيب وكأن السورة الطويلة أياً كانت لوحة جميلة متناسقة الألوان والظلال والمشاهد، أو بناء محكم الترابط تام التكوين. قال الإمام الشاطبي: «إن السورة الواحدة مهما تعدّدت قضاياها فهي تكون قضية واحدة»[1]. أي تدور على موضوع واحد.

ممّا يدلّ دلالة قاطعة على أن هذا القرآن تنزيل حكيم عليم، أحاط علمه بما هو كائن، كما قال تعالى: ﴿قُلۡ أَنزَلَهُ ٱلَّذِي يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا﴾ [الفرقان: 6].

(1) «**الموافقات**» للشاطبي 3/ 414.

obeikandl.com

2 ـ علم أوَّلُ ما نَزَلَ وآخِرُ ما نَزَلَ من القرآن(*)

ومعرفته أمر يحتاج إليه دارس التفسير وباحث الأحكام، فبه يتميّز الناسخ من المنسوخ، وبه يُعْرَف تاريخ التشريع الإسلامي وتدرُّجه، والحِكمة من ذلك(1).

أوَّلُ ما نَزَلَ من القرآن الكريم

أول ما نزل من القرآن الكريم هو صدر سورة العلق: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَـٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَـٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: 1-5]. وذلك كما ثبت في حديث نزول الوحي الذي روته السيدة عائشة الذي أخرجه البخاري ومسلم.

لكن هذا قد يشكل بما أخرجه الشيخان(2) عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن قال: «سألت جابرَ بن عبد الله أي القرآن أُنزِلَ قبل؟ قال: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾، فقلت: أو ﴿ٱقْرَأْ﴾؟ فقال جابر: أُحَدِّثكم ما حدّثنا رسول الله ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**جاورتُ بِحِراءَ شهراً فلما قضيتُ جِواري نزلْتُ فاستبْطَنْتُ بطنَ الوادي، فَنُوديتُ، فإذا هوَ**

(*) للتوسع في هذا النوع انظر: «**الفهرست**» لابن النديم ص: 40، الكتب المؤلفة في نزول القرآن، و«**البرهان**» للزركشي 1/ 293، و«**الإتقان**» للسيوطي 1/ 68، 77: النوعين السابع والثامن معرفة أول ما نزل ومعرفة آخر ما نزل، و«**مفتاح السعادة**» لطاش كبري زاده 2/ 347، الدوحة السادسة: العلوم الشرعية، الشعبة الثامنة: فروع العلوم الشرعية، المطلب الثالث: فروع علم التفسير، علم معرفة أول ما نزل، و«**أبجد العلوم**» للقنوجي 2/ 489، علم معرفة أول ما نزل، و«**مناهل العرفان**» للزرقاني 1/ 85 - 99، المبحث الرابع: في أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن، و«**مباحث في علوم القرآن**» للصالح: 127 - 163، الباب الثالث: علوم القرآن، الفصل الثاني: علم أسباب النزول، و«**علوم القرآن**» للعتر ص: 35.

(1) «**مناهل العرفان**» للزرقاني 1/ 85.

(2) البخاري في «**بدء الوحي**» 1/ 3 - 4، وتفسير سورة المدثر 4/ 161 - 163، وتفسير سورة اقرأ ج4/ 174، ومسلم 1/ 98 - 99.

جبريل، فأخذتني رجفة، فأتيتُ خديجةَ فأمرتهم فدثروني، فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنذِرْ ۝٢﴾ [المدثر: 1-2]».

وقد اغترّ بهذه الرواية بعضُ أهل العلم، وجعل صدر سورة المُدّثر أول ما نزل من القرآن.

لكن التحقيق أن حديث جابر لا يتحدّث عن ابتداء الوحي الأول، إنما يتحدّث عن أول ما نزل بعد فتور الوحي، وهو هذه الآيات من سورة المدّثر، وهي أول ما نزل من القرآن يأمر النبي ﷺ بالإنذار.

يدلّ على ذلك ما ثبت في الحديث نفسه، عن أبي سلمة بن عبد الرحمٰن، عن جابر بن عبد الله الأنصاري في حديثه السابق وفيه قوله: «... **فإذا الملك الذي جاءني بحِراء**».

وليس بخافٍ ما في هذا الافتتاح لبدء الوحي بـ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ۝٥﴾ [العلق: 1-5] من الحكمة الجليلة، حتى إن الخطباء والكتّاب والأدباء لا يملّون من القول فيها، ومن أن يرددوه في كل مناسبة تُقال عن العلم وعن الحضارة، وعن الثقافة وعن القرآن وعن الإسلام، وعن أثر القرآن في تحويل العالم، ولا سيما إذا قارنّا ذلك بما افتتح به كتاب آخر لدى الأمم الأخرى.

آخر ما نزل من القرآن الكريم

أقوى الآراء وأرجحها في آخر ما نزل من القرآن مطلقاً أنه قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ۖ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 281].

ثبت ذلك من طرق عن عبد الله بن عباس، وروي عن أبي سعيد أيضاً.

وقد وَرَدَ أنه ﷺ مَكَثَ بَعْدَها تِسْعَ لَيَالٍ.

وهي الآية الحادية والثمانون ومائتين من سورة البقرة، نزلت ختاماً لآيات تحريم الربا، وآخرها آية الوعيد الشديد: ﴿فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ فَأْذَنُوا۟ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ [البقرة: 279].

وروى البخاري عن ابن عباس قال: «آخر آية نزلت على النبي ﷺ آية الربا»[1].

وهذا ليس منافياً لما ثبت عن ابن عباس في الآية السابقة، لأن مراد ابن عباس أنها آخر ما نزل في الربا، كما أشار لذلك الإمام البخاري رحمه الله.

ولا يخفى عظم موقع الآية من الآيات التي سبقتها وعظم الحكمة في اختتام وحي القرآن بها، فإن تأثير المال على الإنسان عظيم حتى قالوا: المال شقيق الروح، والآخرة أعظم دواء لداء الدنيا وأموالها، وخير مقوّم لعوج النفس فيها، فكان اختتام الوحي بهذه الآية في غاية المناسبة الجليلة لما قصده تعالى من وعظ عباده وتذكيرهم زوال الدنيا، وفناء ما فيها من المال والمتاع وغيرهما، وإتيان الآخرة، والرجوع إليه تعالى ليحاسب خلقه.

الأوائل والأواخر النسبية

وقد عُنِيَ العلماء في بحوثهم بالأوّليّات المُقيَّدة أي النسبية في موضوع مُعَيَّن، أو ناحية مُعيَّنة، وبالآخر المُقيَّد النسبي كذلك، وهو مأثور في أصله عن الصحابة والتابعين، حتى ربما كانت الأوّليّة أو الآخريّة المُقيّدة ترد عن الصحابي أو التابعي فيظنّها بعضهم مطلقة، لذلك وجب الاطلاع عليها.

ومن أمثلة أول ما نزل من القرآن مُقَيَّداً:

1 ـ أول سورة نزلت بتمامها سورة الفاتِحَة.

2 ـ أول ما نزل في تشريع الجهاد: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَـٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّـٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَـٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾ وَإِن

(1) البخاري، آخر تفسير سورة البقرة 6/ 33.

obeikandi.com

يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ ﴾ [الحج: 39 ـ 41] في السنة الثانية للهجرة[1].

3 ـ أول ما نزل في تحريم الخمر[2]: ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَآ إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَآ أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا﴾ [البقرة: 219].

ومن أمثلة آخر ما نزل من القرآن مقيداً:

1 ـ آخر ما نزل يذكر النساء خاصة: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّى لَآ أُضِيعُ عَمَلَ عَٰمِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ﴾ [آل عمران: 195].

2 ـ آخر ما نزل في المواريث آية الكلالة في آخر سورة النساء: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ﴾ [النساء: 176].

3 ـ آخر سورة نزلت بتمامها من القرآن: ﴿إِذَا جَآءَ نَصْرُ ٱللَّهِ وَٱلْفَتْحُ﴾ [النصر: 1].

(1) «الإتقان» للسيوطي 1/ 26، و«مناهل العرفان» للزرقاني 1/ 94 – 95.

(2) «الإتقان» للسيوطي 1/ 26 – 27، و«مناهل العرفان» للزرقاني 1/ 90 – 93.

3 ــ علم أسباب النزول(*)

(سَبَبُ نزول الآية) هو القصّة أو الحادِثَة التي نَزَلَت الآية عقبها لِتُبيِّن حكم الله فيها، ومعرفة هذا السَّبَب يُعين على فهم الآية فهماً صحيحاً.

لذلك قال الإمام علي بن أحمد الواحدي (427 هـ) في كتابه «**أسباب النزول**»: (لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قِصَّتها وبيان نزولها)[1]. وقال ابن دقيق العيد (ت 702 هـ): (معرفة سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن)[2]. ونقل عنه الزركشيُّ في «**البرهان**» قوله: (بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني الكتاب العزيز، وهو أمرٌ تحَصَّل للصحابة بقرائِن تَحْتَفُّ بالقضايا)[3].

إن الحوادث التي جرت في زمان الرسول ﷺ، أثناء نزول القرآن الكريم، تعتبر شرطاً جوهرياً لبيان سبب النزول وتمييزه عن الآيات التي نزلت للإخبار بالوقائع الماضية مع الأمم السابقة، حتى انتقد العلماء «ما ذكره الواحدي (ت 427 هـ) في

(*) للتوسع في هذا النوع انظر: «**الفهرست**» لابن النديم: 57، في الفن الثالث من المقالة الأولى، و«**البرهان**» للزركشي 1/ 115، و«**الإتقان**» للسيوطي 1/ 82، النوع التاسع و«**مفتاح السعادة**» لطاش كبري 2/ 349، في المطلب الثالث في فروع علوم التفسير، و«**كشف الظنون**» لحاجي خليفة 1/ 76، و«**أبجد العلوم**» للقنوجي 2/ 53، و«**مناهل العرفان**» للزرقاني 1/ 99 – 130، المبحث الخامس، و«**مباحث في علوم القرآن**» لصبحي الصالح: 127 – 163، و«**معجم الدراسات القرآنية**» لابتسام الصفار: 53، و«**معجم الدراسات القرآنية**» لعلي شواخ 1/ 125 – 138، «**نزول القرآن**» دراسة لمصطفى شريف العاني، نشرها في مجلة الرسالة العراقية، السنة 2، ع18، 1389هـ / 1969م و«**التنزيل ووقت النزول**» لزهرة حسين أبو العلا، مقال في مجلة الإسلام، س 8، ع37، 1358هـ/ 1939م، «**الصحيح المسند من أسباب النزول**» لمقبل الوادعي، طبع بمكتبة المعارف بالرياض بدون تاريخ، و«**علوم القرآن**» للعتر ص: 46.

(1) «**أسباب النزول**» للواحدي ص: 3.

(2) «**الإتقان**» للسيوطي 1/ 48.

(3) «**البرهان**» للزركشي 1/ 22.

obeikandl.com

تفسيره سورة الفيل مِنْ أن سَبَبَها قصة قدوم الحبشة به، فإنّ ذلك ليس من أسباب النزول في شيء، بل هو من باب الإخبار عن الوقائع الماضية، كذكر قصة نوح وعاد وثمود وبناء البيت ونحو ذلك.

وجدير بالذكر أنه ليس كل القرآن قد نزل على أسباب، بل إن من القرآن الكريم ما نزل ابتداء غير مبني على سبب، ومن ذلك أكثرُ قصص الأنبياء مع أممهم، وكذا وَصْفُ بعض الوقائع الماضية، أو أنباءُ الغيب القادمة، وبيانُ أهوال القيامة، والجنة والنار، فقد نزل أكثر ذلك ابتداء، من غير توقّف على سَبب.

أما قول الصحابي الجليل ابن مسعود ﷺ (ت 32 هـ): «والله ما نزلت آية إلا وأنا أعلم فيمن نزلت...» ونحوه عن الخليفة الراشد علي ﷺ (ت 40 هـ) فليس يعني أن لكل آية سببا..، بل المراد: إنْ كانَ لها سَبَبٌ فهو يَعْلَمُه.

فوائد علم أسباب النزول:

ولا ريب عند من له تأمل وخُبْرٌ بدراسة النصوص والوثائق أن لمعرفة أسباب النزول والوقائع التي بُنِيَ عليها ورود النص، أو ترتّب عليها وقوع الحدث من أحداث التاريخ له أثر بالغ الخطر في دراسة تلك النصوص أو الأحداث، وذلك من أَوْجُه كثيرة، نذكر منها في هذا المقام:

1 ـ **الاستعانة على فهم المعنى المراد**: لما هو معلوم من الارتباط بين السبب والمُسبّب.

2 ـ **معرفة وجه الحكمة التي ينطوي عليها تشريع الحُكم**: ممّا يكون أدْعَى لتفهُّمه وتقبّله، فمن قرأ أسباب نزول آيات تحريم الخمر مُتدرّجة واحدة بعد الأخرى، أدرك ضرورة تحريم الخمر، وبعثه موقف الصحابة عند نزول تحريمها البات لأن يقتدي بهم ويأتسي بعملهم، فينزجر عمّا قد يكون عليه من فعل محرّم.

3 ـ **إزالة الإشكال عن ظاهر النص لمَن لم يتعرف سبب النزول**: وذلك كثير يصادفه المُفسِّر، ومنه هذا المثال المشهور وهو أنه قد أشكل على الخليفة مروان بن الحكم الأموي (ت 65 هـ) معنى قوله تعالى: ﴿لَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أَتَوا۟ وَّيُحِبُّونَ أَن يُحْمَدُوا۟ بِمَا لَمْ يَفْعَلُوا۟ فَلَا تَحْسَبَنَّهُم بِمَفَازَةٍ مِّنَ ٱلْعَذَابِ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: 188].

obeikandl.com

وقال: لئن كان كل امرىء فَرِحَ بما أوتي وأَحَبَّ أنْ يُحْمدَ بما لم يفعل مُعَذَّباً لنُعَذَّبَنَّ أجْمَعُون؟ حتى بَيَنَ له ابنُ عباس أن الآية نزلت في أهل الكتاب، حين سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إيّاه، وأخبروه بغيره، فخرجوا قد أروه أن قد أخبروه بما سألهم عنه، واستحمدوا بذلك إليه، وفرحوا بما أَتَوْا مِنْ كِتْمانِهم إيّاه ما سألهم عنه» أخرجه الشيخان[1].

4 ـ **كشف أسرار البلاغة في القرآن العظيم**: لما يفيده علم أسباب النزول من تلاؤم أسلوب القرآن مع مقتضى حال السامعين والعالمين إلى يوم الدين. وقد حفلت مصادر التفسير البلاغي بهذا اللون.

كيف نعرف أسباب النزول:

لمّا كان سبب النزول أمراً واقعاً نزلت الآية بشأنه، كان من البَدَهِي ألا يدخل العلم بهذه الأسباب في دائرة الرأي والاجتهاد، لهذا قال الإمام الواحدي (ت 427 هـ) في ديباجة كتابه «**أسباب النزول**»[2]:

(ولا يَحِلّ القول في أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممَّن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الأسباب، وبحثوا عن علمها وجدّوا في الطلاب).

ومن هٰهنا نَفْقَهُ تَشَدُّد السلف في البحث عن أسباب النزول، حتى قال الإمام محمد بن سيرين (ت 110 هـ): سألت عَبِيدَةَ عن آية من القرآن فقال: «اتق الله وقلْ سداداً، ذهب الذين يعلمون فيم أنزل الله من القرآن»[3].

ولمّا كانت أسباب النزول غير خاضعة للاجتهاد أدخلها علماء الحديث عن الصحابي الذي عاين التنزيل وعاصره فيما له حكم المرفوع، وإن كانت العبارة فيها لفظ الصحابي[4] كحديث ابن عباس السابق في جوابه للخليفة مروان، فإن اللفظ لابن عباس، لكن له حكم المرفوع أي المنسوب إلى النبي ﷺ.

---

(1) البخاري في كتاب: التفسير، 6/ 40 – 41، ومسلم بلفظه في كتاب: المنافقين، 8/ 122.
(2) ص: 3 – 4 و«**قارن بالإتقان**» 1/ 331.
(3) «**الموافقات**» للشاطبي 3/ 422 – 423، و«**الإتقان**» الموضع السابق.
(4) انظر المسألة في «**معرفة علوم الحديث**» للحاكم ص: 20، و«**منهج النقد في علوم الحديث**»، لنور الدين عتر، ص: 328 – 329.

وقد اتفق علماء الحديث على اعتبار قول الصحابي في سبب النزول له حكم المرفوع، وأخرج المحدثون أسباب النزول في كتبهم كالبخاري ومسلم وغيرهما.

أما ما يرويه التابعون من أسباب النزول فهو مرفوع أيضاً، لكنه مرسل[1]، لعدم ذكر الصحابي فيه.

لكن ينبغي الحذر والتيقُّظ، فلا نخلط بأسباب النزول ما ليس منها، فقد يقع على لسانهم قولهم: «نزلت هذه الآية في كذا»، أو «في الرجل يفعل كذا». ويكون المراد بيان موضوع الآية، أو ما دلّت عليه من الحكم. كقوله تعالى: ﴿وَأَنفِقُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلۡقُواْ بِأَيۡدِيكُمۡ إِلَى ٱلتَّهۡلُكَةِ﴾ [البقرة: 195]. البخاري عن حذيفة في هذه الآية قال: «نزلت في النفقة»[2].

قال الإمام الزركشي[3]: «وقد عُرِفَ من عادة الصحابة والتابعين أن أحدهم إذا قال: نزلت هذه الآية في كذا، فإنه يريد بذلك أن هذه الآية تتضمن هذا الحكم، لا أن هذا كان السبب في نزولها... فهو من جنس الاستدلال على الحكم بالآية، لا من جنس النقل لما وقع».

اختلاف روايات أسباب النزول:

لمّا كان سبيل الوصول إلى أسباب النزول هو الرواية والنقل، كان لا بد أن يعرض لها ما يعرض للرواية مما هو معلوم ومدروس في علوم الحديث، من صحّة وضعف، واتّصال وانقطاع، وغير ذلك مما لا نطيل به، غير أنا ننبّه هنا على ظاهرة هامة يحتاج الدارس إليها وهي اختلاف روايات أسباب النزول وتعدُّدها، وذلك لأسباب يمكن تلخيص مهماتها فيما يلي[4]:

1 ـ ضعف الرواة:

وضعف الراوي يسبب له الغلط في الرواية، وأن تكون مردودة، فإذا خالفت

(1) «**الإتقان**» للسيوطي 1/ 31.
(2) «**صحيح البخاري**» 6/ 57.
(3) «**البرهان**» 1/ 31 – 32.
(4) «**الإتقان**» للسيوطي 1/ 31 – 34.

روايته رواية المقبولين، كانت أولى بالرد.

ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: 115].

فقد ثبت أنها في صلاة التطوُّع للراكب المسافر على الدابَّة: أخرج مسلم عن ابن عمر قال: «كان رسول الله ﷺ يصلي وهو مقبل من مكة إلى المدينة على راحلته حيث كان وجهه، قال: وفيه نزلت: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾[1].

وأخرج الترمذي[2] ـ وضعَّفه ـ أنها في صلاة مَنْ خَفِيَت عليه القِبْلَةُ، فاجتهد فأخطأ القبلة، فإنّ صلاته صحيحة.

فالمُعَوَّل هنا في سبب النزول على الأوّل لصِحَّتِه.

2 ـ تعدد الأسباب والمُنَزَّل واحد:

وذلك بأن تقع عدة وقائع في أزمنة متقاربة فتنزل الآية لأجلها كلها، وذلك واقع في مواضع متعددة من القرآن، والعمدة في ذلك على صحة الروايات، فإذا صحت الروايات بعدة أسباب، ولم يكن ثمة ما يدل على تباعدها، كان ذلك دليلاً على أن الكل سبب لنزول الآية والآيات.

مثال ذلك: آيات اللعان؛ فقد أخرج البخاري أنها نزلت في هِلال بن أُمَيَّة لمّا قَذَف امرأته عند النبي ﷺ، فأنزل الله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [النور: 6].

وفي «**الصحيحين**» أنها نزلت في عُوَيْمِر العَجْلاَني، وسُؤالِه النبي ﷺ عن الرَّجُلِ يَجِدُ مَعَ امْرَأَتِه رَجُلاً.. فقال ﷺ: «**قد أنزل الله القرآن فيكَ وفي صاحِبَتِكَ**»[3].

وظاهر الحديثَيْن الاختلاف، وكِلاَهُما صحيح. فأجاب الإمام النووي (ت 676هـ)

---

(1) «**صحيح مسلم**» 2/ 149، وأصله متفق عليه، انظر **البخاري** 2/ 44, 45.
(2) «**الترمذي**» 1/ 176، وأخرجه أيضاً **ابن ماجه** 1/ 326، و**الدارقطني** ص: 101 طبع الهند.
(3) البخاري في «**التفسير**» 6/ 99 و100، ومسلم في «**اللعان**» 4/ 205.

obeikandi.com

بأن أول مَن وقع له ذلك هِلال، وصادف مجيء عُوَيْمِر أيضاً فنزلت في شأنهما معاً، وبذلك قال الإمام الخطيب البغدادي (ت 463 هـ)، قال: (لعلَّهما اتفق لهما ذلك في وقت واحد)[1].

3 ـ أن يتعدَّد نزول النصّ لتعدّد الأسباب:

قال الإمام الزركشي (ت 794 هـ)[2]: (وقد ينزل الشيء مرتين تعظيماً لشأنه، وتذكيراً به عند حدوث سببه خوف نسيانه... ولذلك أمثلة، منها:

ما ثبت في «**الصحيحين**»[3] عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه في قوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ﴾ أنها نزلت لما سأله اليهود عن الروح وهو في المدينة، ومعلوم أن هذه الآية في سورة «سبحان»، وهي مكية بالاتفاق، فإن المشركين لما سألوه عن ذي القرنين وعن أهل الكهف قبل ذلك بمكة، وأن اليهود أمروهم أن يسألوه عن ذلك، فأنزل الله الجواب، كما سبق بيانه في فصل نزول القرآن[4].

ولا يقال: كيف يتعدّد النزول بالآية الواحدة، وهو تحصيل حاصل؟

فالجواب: أن لذلك فائدة جليلة، «والحكمة من هذا ـ كما قال الزركشي (ت 794 هـ) ـ أنه قد يحدث سبب من سؤال أو حادثة تقتضي نزول آية، وقد نزل قبل ذلك ما يتضمنها، فَتُؤَدَّى لتلك الآية بعينها إلى النبي ﷺ، تذكيراً لهم بها، وبأنها تتضمّن هذه»[5].

عموم اللفظ وخصوص السبب:

هذه قضية أصولية من قواعد أصول الفقه، كما أنها من أصول التفسير الهامة، تضبط كيفية تفسير السبب للنص ضبطاً يزيل التوهم الفاسد.

---

(1) «**الإتقان**» 1/ 33.
(2) «**البرهان**» 1/ 29.
(3) البخاري في كتاب: التفسير، 6/ 108 – 109، ومسلم في كتاب: القيامة، 8/ 128.
(4) راجع ص: 31 وانظر «**المسند**» 2/ 255، والطبري 15/ 104.
(5) «**البرهان**» الزركشي 1/ 31.

فالسبب الخاص قد ينزل فيه نص خاص بموضوع السبب، وقد ينزل نص عام الصيغة.

1 ـ أما إن كان النص النازل خاصاً بالسبب، ولا عموم للفظه فإن الآية حينئذ تقتصر عليه قطعاً[1].

مثال ذلك قوله تعالى في سورة الليل: ﴿وَسَيُجَنَّبُهَا ٱلْأَتْقَى ﴿١٧﴾ ٱلَّذِى يُؤْتِى مَالَهُۥ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾ [الليل: 17-18].

هذه الآية نزلت في أبي بكر الصديق بالإجماع، ومن هنا استدلّ بها الإمام فخر الدين الرازي مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: 13] على أن أبا بكر أفضل الناس بعد رسول الله ﷺ.

أما مَن ظنّ أنها عامة في كل مَنْ عمل عمله فهذا غلط منه، لأن هذه الآية ليس فيها صيغة عموم حتى نطبق عليها قاعدة: **«العبرة لعموم اللفظ»**، بل إن **«ال»** في الأتقى للعهد، يؤكد ذلك أن **«أل»**، الموصولة التي تفيد العموم لا توصل بأفعل التفضيل إجماعاً، و**«الأتقى»** ليست جمعاً، بل هو مفرد، والعهد موجود، خصوصاً مع ما يفيده أفعل التفضيل من التمييز وقطع المشاركة، فبطل القول بالعموم وتعين القطع بالخصوص، والقصر على من نزلت فيه رضي الله عنه.

2 ـ وإما أن يكون السبب خاصاً ولفظ الآية عاماً: فالمُعْتَمَد الذي عليه جمهور الفقهاء والأصوليين والمفسّرين وغيرهم **«أن العبرة لعموم اللفظ لا لخصوص السبب»**.

ومن الأدلة على ذلك احتجاج الصحابة والتابعين فَمَنْ بعدهم في وقائع كثيرة بعموم آيات نزلت على أسباب خاصة، وكان ذلك الاستدلال شائعاً ذائعاً بينهم، لا ينكره أحد.

لذلك قال محمد بن كعب القرظي: «إن الآية تنزل في الرجل ثم تكون عامّة بعد».

(1) **«الإتقان»** السيوطي 1/30.

وسأل نَجْدَةُ الحَنَفِيُّ ابنَ عباس عن قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا﴾ [المائدة: 38]، أخاصّ أم عام؟ قال: بل عام[1].

ويدل لذلك أيضاً أنه كما قال الإمام الزركشي (ت 794 هـ):

«قد جاءت آيات في مواضع اتفقوا على تعديتها إلى غير أسبابها، كنزول آية الظِّهار في سَلَمَة بن صَخر، وآية اللعان في شأن هلال بن أُمَيَّة، ونزول حدّ القذف في رُمَاةِ عائشةَ رضي الله عنها، ثم تعدّى إلى غيرهم»[2].

وهذه القاعدة من البَدَهِيَّات، لا يمكن للعالِم أن يُخَصِّص ألفاظَ القرآن العامة «بأولئك الأعيان دون غيرهم، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق»[3].

وعلى ذلك درجت القوانين في الدنيا كلها، فإن القانون يصدر لأسباب خاصة في أحيان كثيرة ثم يكون حكمه عاماً على الجميع.

أشهر المؤلفات في أسباب النزول:

كان التسطير في أسباب النزول من اختصاص الأئمة الكبار المُحَدّثين المشاركين في عدد من العلوم، ثم منهم مَن تعرض لأسباب النزول في كتب التفسير كما نراه في كتب التفسير بالمأثور بصورة خاصة، ومنهم مَن أفرد جمع مادة هذا العلم في تأليف مفرد.

وأول مَن عرفناه أَلَّفَ في أسباب نزول القرآن الكريم شيخ البخاري الإمام علي ابن عبد الله المديني (المتوفي سنة 234 هـ)، ثم تتابعت المصنَّفات في ذلك، لكنها لم تُغْنَ بالتنقيح ولم تلتزم ببيان السقيم من الروايات من الصحيح، مما يلزم الدارس بالتثبت والتحقيق.

(1) «**الإتقان**» 1/ 29 – 30.
(2) «**البرهان**» 1/ 24.
(3) «**الإتقان**» 1/ 30، وانظر «**البرهان**» 1/ 32.

obeikandi.com

وأهم الكتب المصنّفة المطبوعة في ذلك:

1 ـ «**أسباب النزول**» للإمام المفسّر النحوي المحدث أبي الحسين علي بن أحمد النيسابوري الشهير بالواحدي، المتوفى سنة 427 هـ، وقد عوّل فيه على رواية الأسباب بأسانيده، وأورد أشياء معلقة بدون إسناد.

2 ـ «**العجاب في الأسباب**» للشهاب أبي الفضل، محمد بن حجر العسقلاني (ت 852 هـ) وقد تعرَّض فيه لتصحيح الروايات ونقدها.

3 ـ «**لُباب النقول في أسباب النزول**» للإمام المحدث الحافظ جلال الدين عبد الرحمٰن السيوطي (المتوفى سنة 911 هـ) جرّده من الأسانيد وعزى كل حديث لمن أخرجه، فكفى القارىء بذلك جهداً كبيراً، وزاد على ما ذكره الواحدي، غير أنه أخلّ بأمرين:

الأول: أنه لم ينصّ عل الصحيح من غيره، معتمداً على المراجع التي أحال القارىء عليها وكثير منها نادر الوجود، وبعضه في زمننا هذا مفقود.

الثاني: أنه ترك كثيراً من أسباب النزول لم يوردها، كما يعلم من مطالعة المراجع مثل «**تفسير ابن كثير**»، و«**الدر المنثور**» للسيوطي نفسه، فلا تظنن الآية نزلت مُبتَدَأَةً على سبب لعدم ذكر سببها في «**اللباب**» فقد يكون لها في المراجع سبب أو أسباب.

4 ـ علم المَكّي والمَدَني(*)

(المَكّي) هو ما نزل من القرآن الكريم بمكّة المكرّمة، و(المدني) ما نزل بالمدينة المنورة بعد الهجرة إليها. ومعرفة هذا العلم مرتبطة بمعرفة سيرة الرسول ﷺ، لأن القرآن كان يتنزّل مواكباً للدعوة الإسلامية خطوة خطوة، ليرشد الرسول ﷺ كيف يدعو الناس إلى الله، وكيف يتصرّف في كل موقف، ويعلّمه ماذا يردّ على المشركين المعاندين؛ لذلك تُعتبر معرفة هذا العلم هامّة للدُعاة إلى الله، وقد قام بعض العلماء بترتيب سور وآيات القرآن حسب نزولها زمنياً.

وهذا العلم يدرس جوانب الظروف العامة التي أحاطت بنزول القرآن، وليس قاصراً على ما يدل عليه ظاهر العبارة من تقسيم القرآن إلى مكي نزل بمكة أو مدني نزل بالمدينة، ومن هنا فإن هذا الموضوع يحتل أهمية كبيرة في دراسة تاريخ الدعوة الإسلامية، وبلاغة القرآن، لما يكشفه من توفر عميق لأصل البلاغة ومراعاة مقتضى الحال، إلى جانب توفر عنصر آخر من سمات إعجاز القرآن هو انعتاقه من قيود الزمان والمكان وانطلاقه من إسار البيئة الضيقة ليحلّق في علياء الموضوعية التي يخاطب بها الإنسان في كل زمان، وفي أي مكان.

ضابط المكي والمدني:

تعدّدت طرائق علماء هذا الفن في كيفية التمييز بين القرآن المكي والقرآن المدني، على ثلاثة نماذج نوضحها فيما يلي:

(*)للتوسع في هذا النوع انظر: **«فنون الأفنان»** لابن الجوزي: 335 – 340، و**«البرهان»** للزركشي 1/ 273، و**«الإتقان»** للسيوطي 1/ 22 – 50، النوع الأول، و**«مفتاح السعادة»** 2/ 344، الدوحة السادسة: في العلوم الشرعية، الشعبة الثامنة: في فروع العلوم الشرعية، المطلب الثالث: في فروع علم التفسير: و**«أبجد العلوم»** للقنوجي 2/ 505، و**«مناهل العرفان»** للزرقاني 1/ 185 – 232، و**«مباحث في علوم القرآن»** لصبحي الصالح: 164 – 233، الباب الثالث، الفصل الثالث، علم المكي والمدني، و**«علوم القرآن»** للعتر، ص: 55.

ـ **المذهب الأول**: زماني وهو أن القرآن المكي هو ما نزل قبل الهجرة، والقرآن المدني هو ما نزل بعد الهجرة.

وهذا هو أشهر الاصطلاحات في المكي والمدني(1)، ويمتاز بشمول تقسيمه جميع القرآن لا يخرج عنه شيء، حتى كان عموم قولهم في المدني: «ما نزل بعد الهجرة» يشمل ما نزل بعد الهجرة في مكة نفسها في عام الفتح أو عام حجة الوداع، مثل آية: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ﴾ [المائدة: 3].

كما يشمل ما نزل بعد الهجرة خارج المدينة في سفر من الأسفار أو غزوة من الغزوات.

روي عن يحيى بن سلام قال: «ما نزل بمكة وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبي ﷺ المدينة فهو من المكي، وما نزل على النبي ﷺ في أسفاره بعد ما قدم المدينة فهو من المدني».

وهذا أثر هام ومفيد، يؤخذ منه أن ما نزل في سفر الهجرة مكي اصطلاحاً(2).

ـ **المذهب الثاني**: مكاني، وهو أن المكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة والمدني ما نزل بالمدينة.

وهذا المذهب التزم ظاهر التسمية، وإن كان شرّاحه أدخلوا في مكة ضواحيها، فاعتبروا من القرآن المكي ما نزل بمنى وعرفات والحديبية، ومن القرآن المدني ما نزل بأحد وسلع(3).

لذلك كان في هذا الضابط ثلمة هي وجود قسم ثالث هو واسطة بين القسمين، وهو ما نزل من القرآن في الأسفار، فإنه لا يعد مكياً ولا مدنياً..

ـ **المذهب الثالث**: أن المكي ما وقع خطاباً لأهل مكة، والمدني ما وقع خطاباً لأهل المدينة.

---

(1) كما ذكر السيوطي في «**الإتقان**» 1/ 9.
(2) المصدر نفسه.
(3) المرجع السابق، وزاد في ضواحي المدينة ذكر «**بدر**»، وهو مستبعد لبعدها الشاسع عن المدينة.

obeikandi.com

وفسّرَ بهذا قولُ الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود: «كل شيء نزل فيه: «يا أيها الناس» فهو بمكة، وكل شيء نزل فيه «يا أيها الذين آمنوا» فهو بالمدينة»[1].

غير أنا نرى أن هذا الأثر ليس صالحاً للاستدلال لهذا المذهب، لأن ابن مسعود لم يقصد وضع ضابط وتعريف للمكي والمدني، إنما أراد بيان علامة من علامات القرآن المكي والمدني، أو تفسيراً لبيان المراد بهذا الخطاب، وهو أمر أغلبي ليس مضطرداً دائماً كما سيتضح.

وهذا المذهب في تفسير المكي والمدني أضيق من المذهب السابق، لأنه قد تَقَيَّد بالأشخاص المُعَيّنين في أمكنة مُعيّنة، وتَقَيّد بموضوع مُعيَّن هو ما كان فيه خطاب من آيات القرآن، فبقي القسم الأكبر من القرآن خارج هذا المنهج في تعريف المكي والمدني.

ولهذا الذي ذكرناه في نقد المذهبين الثاني والثالث، كان المذهب الأول أكثر قبولاً لدى العلماء، حتى كان هو الأشهر كما ذكرنا.

ويندرج في ضمن المكي والمدني بناء على المذهب الأشهر المعتمد أنواع كثيرة من الدراسات المتصلة بالظروف المحيطة بنزول القرآن كالسفري والحضري، والليلي والنهاري، وما حُمِل من مكة إلى المدينة، وما حُمِل من المدينة إلى مكة، وما نزل بالمدينة وحكمه مكي، وما نزل بمكة وحكمه مدني، وغير ذلك من دراسات تدل على الاعتناء العجيب الذي أحيط به هذا القرآن، وتوفير وسائل دراسته من جميع الجهات.

وبناء على هذا الضابط المختار كان عدد السور المدنية تسعاً وعشرين سورة، وسائر السور بعد ذلك مكية، وقد يوجد في السورة المدنية ما هو مكي، كما قد يوجد في السورة المكية ما هو مدني، والنظر في ذلك لِمَطْلَعِ السورة إن نزل بمكة عُدَّتْ مكية، وإن نزل بالمدينة عُدَّتْ مَدَنِية.

أهمية علم المكي والمدني:

مما لا يخفى على الباحث أهمية معرفة الأحوال التي احتفت بنزول القرآن في

(1) أخرجه الحاكم في «المستدرك» عن ابن مسعود، ويشهد له ما ورد بمثله عن كثير من المفسرين وعن ابن عباس، انظر «البرهان» 1/ 189 - 190.

فهمه وتفسيره، حتى صرَّحوا بأنه لا يحل لمن ابتعد عن علمها أن يتكلم في تفسير القرآن الكريم، ونوضح أوجه أهمية هذا العلم فيما يلي:

1 ـ إن علم المكي والمدني يعين الدارس على معرفة تاريخ التشريع والوقف على سنّة الله الحكيمة في تشريعه، بتقديم الأصول على الفروع، وترسيخ الأسس الفكرية والنفسية ثم بناء الأحكام والأوامر والنواهي عليها، مما كان له الأثر الكبير في تلقي الدعوة الإسلامية بالقبول، ومن ثم الإذعان لأحكامها.

2 ـ إنه يُعْرَفُ بالمكي والمدني **«الناسخ والمنسوخ»**، الذي كان من حكمة تربية القرآن في التشريع.

كيف نعرف المكي والمدني:

ذكروا لمعرفة المكي والمدني طريقتين لا ثالث لهما، وهما: السماع والقياس[1].

أما السماع: فالمراد به النقل عن النبي ﷺ، أو عن الصحابة الذين عاينوا التنزيل.

وقد كانت عناية الصحابة والتابعين بهذه الأمور عناية بالغة حتى نجد العالم يعتز بعلمه بهذا الموضوع.

أخرج البخاري ومسلم عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «والذي لا إلٰه غيره ما من كتاب الله سورة إلَّا أنا أعلم حيث نزلت وما من آية إلَّا أنا أعلم فيما أُنزلت...»[2].

وقال أيوب السختياني: سأل رجلٌ عِكْرَمَة عن آيةٍ من القرآن؟ فقال: نَزَلَتْ في سَفْحِ ذلك الجبل، وأشار إلى سَلْعٍ، أخرجه أبو نعيم[3].

وأما القياس: فهو ضوابط عرفت بالاستقراء، واستدلّ بها العلماء على المكي والمدني، وكان ذلك موضع عناية المُتقدِّمين.

---

(1) **«البرهان»** للزركشي، نقلاً عن الجعبري أنه حددهما 1/ 189.
(2) **«البخاري»** 6/ 186 – 187، و**«مسلم»** 7/ 148.
(3) **«الإتقان»** 1/ 9.

1 ـ أول هذه الضوابط ما سبق عن عبد الله بن مسعود: «كل شيء فيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ فهو بمكة، وكل شيء نزل فيه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [البقرة: 104] فهو بالمدينة».

وهذه العلامة ليست عامّة عموماً شاملاً، بل استثني من ذلك مواضع قليلة، منها موضعان في سورة البقرة هما: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة: 21] و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا﴾ [البقرة: 168] وسورة البقرة مدنية كلها اتفاقاً.

وأربع مواضع في سورة النساء هي: الآية الأولى من السورة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾ [النساء: 1]، و﴿إِن يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا ٱلنَّاسُ وَيَأْتِ بِـَٔاخَرِينَ﴾ [الآية: 133]، و ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُمُ ٱلرَّسُولُ بِٱلْحَقِّ﴾ [النساء: 170]، و﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ قَدْ جَآءَكُم بُرْهَٰنٌ﴾ [النساء: 174].

2 ـ كل سورة فيها الاستفتاح بالحروف المُقَطَّعة فهي مكّيّة سوى الزهراوين: البقرة وآل عمران.

3 ـ كل سورة فيها ﴿كَلَّآ﴾ فهي مكّيّة.

4 ـ كل سورة فيها ذكر آدم وإبليس فهي مكّيّة سوى السورة الطولى ـ أي البقرة ـ.

5 ـ كل سورة فيها فريضة أو حدّ فهي مدنية.

6 ـ كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية سوى العنكبوت.

والحكمة في ذلك ترجع إلى المقاصد الموضوعية التي نزل بها القرآن، فالخطاب في مكة كان لأمور اعتقادية تشمل كل الناس، وهي مناط إنسانيتهم، فناسب خطابهم بـ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ كما أن محاورة أهل العناد تناسب حرف الردع ﴿كَلَّآ﴾، وكذلك التنويه بإعجاز القرآن لإفحام المنكرين، والاستفتاح بحروف الهجاء في أوائل السور، وقد وجد من ذلك قليل في القرآن المدني تبعاً لاقتضاء الموضوعات المدنية التي كانت فترة بناء، وكانت فترة مكة فترة تأسيس.

القرآن المكّي من حيث الموضوع:

فمن سمات القرآن المكّي الاعتناء بالموضوعات التالية الأساسية:

1 ـ تقرير أصول العقائد الإيمانية، بدعوة الخلق إلى توحيد الله تعالى وإفراده بالعبادة، والإيمان باليوم الآخر وما يتبع ذلك من الجزاء والجنة والنار، وتقرير رسالة النبي ﷺ والرسل من قبله، والإيمان بالملائكة عليهم السلام.

تأمل مثلاً سورة القَصَص المكية ودعوتها لهذه الأصول، وانظر هذه الآيات التي تدعو إلى الإيمان بالله تعالى وتوحيده:

﴿وَرَبُّكَ يَعْلَمُ مَا تُكِنُّ صُدُورُهُمْ وَمَا يُعْلِنُونَ (٦٩) وَهُوَ اللَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ لَهُ
الْحَمْدُ فِي الْأُولَىٰ وَالْآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ (٧٠) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ
سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ (٧١) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِن
جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِلَيْلٍ
تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ (٧٢) وَمِن رَّحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا
مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ (٧٣)﴾ [القصص: 69-73]

وتأمل هذه الآيات الخاتمة من سورة إبراهيم تعرض من مشاهد القيامة:

﴿فَلَا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ (٤٧) يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ
غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ (٤٨) وَتَرَى الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ مُّقَرَّنِينَ فِي
الْأَصْفَادِ (٤٩) سَرَابِيلُهُم مِّن قَطِرَانٍ وَتَغْشَىٰ وُجُوهَهُمُ النَّارُ (٥٠) لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَّا
كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٥١) هَٰذَا بَلَاغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا بِهِ وَلِيَعْلَمُوا أَنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ
وَلِيَذَّكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ (٥٢)﴾ [إبراهيم: 47-52].

ويطمئن القلب إيماناً بالآخرة وهو يتفكر في مثل هذه الآيات من سورة قّ:

﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ (٦) وَالْأَرْضَ
مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٧) تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ (٨)
وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُّبَارَكًا فَأَنبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ (٩) وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ
(١٠) رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَّيْتًا كَذَٰلِكَ الْخُرُوجُ (١١)﴾ [قَ: 6-11].

obeikandi.com

وهكذا الحُجّة البالغة في مثل هذه الآيات الخاتمة من سورة القيامة: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٦﴾ أَلَمْ يَكُ نُطْفَةً مِّن مَّنِيٍّ يُمْنَىٰ ﴿٣٧﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٣٨﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ ﴿٣٩﴾ أَلَيْسَ ذَٰلِكَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ﴿٤٠﴾﴾ [القيامة: 36-40].

2 ـ الحملة على الشرك والوثنية، والإلحاد والدهرية، وإقامة الحُجج والبراهين الدامغة على بطلان عقائدهم الزائغة، مستعيناً بضرب الأمثال وأنواع البيانات، حتى كشف لهم سوءة عقائدهم وفضحها حتى جعل أصنامهم دون الذباب، تأمل هذه الآيات من سورة الحج أيضاً:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ ۖ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ۚ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴿٧٣﴾ مَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٧٤﴾ اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾﴾ [الحج: 73-75].

وتأمل قوله في سورة العنكبوت:

﴿مَثَلُ الَّذِينَ اتَّخَذُوا مِن دُونِ اللَّهِ أَوْلِيَاءَ كَمَثَلِ الْعَنكَبُوتِ اتَّخَذَتْ بَيْتًا ۖ وَإِنَّ أَوْهَنَ الْبُيُوتِ لَبَيْتُ الْعَنكَبُوتِ ۖ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾﴾ [العنكبوت: 41].

ولما كان التقليد منبعاً خطيراً من منابع الضلال، واحتجّ المشركون بما وجدوا عليه آباءهم، عُني القرآن بتوسيع آفاق العقل والفكر وأمر بالتفكّر وحض على النظر والتعقُّل، وسفّه أحلامهم وأحلام آبائهم، حتى جعل التقليد الأعمى للآباء عاراً وشناراً، يعتبر به المعتبر، فضلاً عن تقليد الأعداء فيما يبتكرونه في الفكر من الأزياء.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ۚ أَوَلَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿٢١﴾﴾ [لقمان: 21].

وقال تعالى: ﴿بَلْ قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾ وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ ۖ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ ۖ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الزخرف: 22-25].

3 ـ الاستدلال بدلائل الأنفس والأكوان على عظمة الله تعالى وسُلطانه، ووجوب

طاعته والانقياد له، وتوحيده في ألوهيته وربوبيته، والإيمان بالقيامة والبعث بعد الموت.

حتى كانت في تلك الآيات دلائل إعجاز علمي، لما اشتملت عليه من حقائق الكون والإنسان والحياة، ونواميس خلقه تعالى وسنن تصريفه لأمور الأكوان.

انظر هذه الآيات من سورة لقمان وما فيها من سبق علمي:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةً
وَبَاطِنَةً ۗ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ﴿٢٠﴾﴾ [لقمان: 20]
إلى أن قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ ۚ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ۚ بَلْ
أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٥﴾ لِلَّهِ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ أَنَّمَا
فِى ٱلْأَرْضِ مِن شَجَرَةٍ أَقْلَٰمٌ وَٱلْبَحْرُ يَمُدُّهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَّا نَفِدَتْ كَلِمَٰتُ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ
ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٧﴾ مَّا خَلْقُكُمْ وَلَا بَعْثُكُمْ إِلَّا كَنَفْسٍ وَٰحِدَةٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٢٨﴾﴾
[لقمان: 25-28].

وتأمّل هذه الآيات من سورة الأنعام:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ
تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ
﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ
يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ
يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا
نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ
مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾﴾
[الأنعام: 95-99].

4 ـ اعتناء القرآن المكي بقِصَص الأنبياء مع أقوامهم، حتى كاد ذلك أن يكون علامة تميّزه، إذ لم يوجد قصص الأنبياء في القرآن المدني، إلا في سور قليلة، كقصّة موسى وقومه في سورة البقرة والمائدة، وهما مدَنيّتان، وقصة عيسى وموسى عليهما السلام في سورة آل عمران والصف، وهما مدنيّتان أيضاً.

obeikandi.com

والحكمة في اعتناء القرآن المكي بقَصَص الأنبياء والأمم الغابرة ظاهرة جداً مما ذكرناه في حِكَم نزول القرآن مُنجَّماً، وما كان لها من أثر عظيم في تثبيت النبي ﷺ والمسلمين، ومواساتهم فيما كان يصيبهم، وإنذار أعدائهم، وإثارة العبرة والعظة بقصص من سبقهم.

انظر على سبيل المثال القصص في سور الأعراف، يونس، هود وغيرها... تجد فيها أبلغ المواعظ وأنفع العبر لتقرير سننه تعالى في إهلاك أهل الكفر والطغيان وانتصار أهل الإيمان والإحسان.

تأمّل قوله تعالى في آخر قصة موسى مع فرعون في سورة غافر:

﴿فَوَقَىٰهُ ٱللَّهُ سَيِّـَٔاتِ مَا مَكَرُوا۟ ۖ وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۖ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ ﴿٤٨﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ فِى ٱلنَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ٱدْعُوا۟ رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِّنَ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوٓا۟ أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۚ قَالُوا۟ فَٱدْعُوا۟ ۗ وَمَا دُعَٰٓؤُا۟ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿٥٠﴾ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ يَوْمَ لَا يَنفَعُ ٱلظَّٰلِمِينَ مَعْذِرَتُهُمْ ۖ وَلَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٥٢﴾﴾ [غافر: 45-52].

5 ـ إن القرآن المكّي شرح أصول الأخلاق، وقواعد عامّة في الاجتماع مما لا يختلف فيه حال ولا عقل، لكونها من البَدَهيات الظاهرة والمقوّمات الأساسية لإنسانية الإنسان، واطمئنانه بالإيمان، كالصدق، والبرّ، والصلة، وبرّ الوالدين، وإكرام الجار، وطهارة القلب واللسان، وغير ذلك. وقد شرح القرآن تلك القيم ببيانه المعجز شرحاً غرسها في قلوبهم، وكرّه إليهم الكفر والفُسوق، والظلم، ووَأْد البنات، والقتل والزنا.

انظر هذه الآيات بالوصايا العشر الأخلاقية والاجتماعية في سورة الإسراء:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا

obeikandl.com

تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا
تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ
عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ
إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ
كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟
ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى
ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟
بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ
وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ
عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾
كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ
ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِى جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾ [الإسراء: 23-39].

القرآن المدني من حيث الموضوع:

ومِنْ سِمَات القُرآن المدني الاعتناء بالموضوعات التالية:

1 ـ بيان جزئيات التشريع وتفاصيل الأحكام العملية، **في العبادات**: كأحكام الصلاة، والزكاة، والصوم، والحج، **والمعاملات**: كالبيوع والأموال، **والاجتماعيات**: كالنكاح والطلاق والرضاع، **والعقوبات**: كالحدود والقصاص كما هو ملاحظ في سورة البقرة والنساء والمائدة والنور.

2 ـ دعوة أهل الكتاب وهم اليهود والنصارى إلى الإسلام، وإقامة الحجج عليهم، كما هو ملحوظ في سورة البقرة، وآل عمران، والمائدة وغيرها.

انظر مثلاً قوله تعالى لليهود: ﴿مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [آل عمران: 67]، وذلك بعد قوله:

﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [آل عمران: 65].

3 ـ وصف المُنافقين، وكشف فضائحهم والتحذير من أساليبهم، لأن النفاق

obeikandl.com

أخطر ما تبتلى به دعوة، حتى أنزلت سورة خاصة تحمل اسم المنافقين، وغير ذلك من مواضع في القرآن تتعلق بهم.

4 ـ بيان الأحكام الخاصة بالعلاقات بين الأمة الإسلامية وغيرها.

وكان ذلك أول تنظيم وتقنين يحكم العلاقات بين الدول، كالأحكام المتعلقة بالحرب، والسلم والصلح، والمعاهدات، والغنائم والأسرى، كما في سُورِ: البقرة والأنفال وبراءة والقتال والفتح والحشر، مما جعل القانون الدولي مديناً للقرآن في هذه الأحكام، ولا تزال الأصول القرآنية في هذا الباب نبراساً يعمل بها القانون الدولي في هذا العصر.

القرآن المكّي من حيث الأسلوب:

وإذا كان لكل من القرآن المكي والمدني موضوعات يُعنيان بها، فلا غَرْوَ أن تكون لهما أساليبهما التي تميز أحدهما عن الآخر في كثير من الأحيان بحسب تنوُّع الموضوعات التي يعالجها القرآن مكياً كان أو مدنياً.

ذلك أن المبنى والمعنى، والشكل والمضمون ركنان متآزران في الأداء القرآني، كل فكرة لها قالب، ولها أسلوب وتناغم خاص، وإثارة معينة للخيال والعاطفة.

فمِنْ سِمَات أسلوب القرآن المَكي:

1 ـ أنه يغلب عليه قصر الآيات والسور، وقوة التعبير والتناغم الموسيقي.

2 ـ كثرة الفواصل القرآنية وقصرها، وتنوعها بما يتناسب مع المعاني والمواقف والصور.

3 ـ كثرة أسلوب التأكيد، والاعتناء بوسائل التقرير أي ترسيخ المعاني وتثبيتها، فكثر في المكي القَسَمُ، وضرب الأمثال، والتشبيه وتكرار بعض الجمل أو الكلمات.

4 ـ إن الآيات المكية يكثر فيها التجسيم الحِسّي، وإضفاء الحركة وخواص الحياة على الأشياء، ولا سيما في مشاهد القيامة، وأهوال النار، وبيان أحوال أهل الجنة والنار، وكذلك القصص.

والحكمة في اختيار هذه الأساليب للقرآن المكي واضحة ظاهرة لنزول القرآن بمكة، وكان أهلها ينكرون دعوة القرآن وهم أصحاب عنجهية، وحَمِيّة جاهلية، فكان المناسب لهم النُذُر القارعة، والعبارات الشديدة الرادعة ليزدجروا عن غيِّهم، ويسلموا قيادهم أمام التأكيدات والتخيلات الحسية، كما أن مضمون خطابات القرآن في مكّة لا يختص بالمؤمنين، بل يتوجّه للناس أجمعين، يحمل الدعوة إلى أصول الإيمان، فكان من المناسب أن يبرز في إعجازها عنصر الجانب الصوتي، والجرس الموسيقي، فتصخ آياته الآذان، وتستولي على المشاعر، وتدعهم في حيرة ودهشة مما يسمعون، فلا يلبث البليغ منهم أن يلقي عصا العجز، بل يرسلها قولة صريحة تعلن إعجاز القرآن.

ومن أمثلة ذلك المعروفة: الوليد بن المغيرة القرشي، الذي لم يلبث بعد أن سمع القرآن سماع تأمُّل وتَرَوّ أن تغيّر مَوْقِفُه حتى شهد للقرآن بالإعجاز فقال: «والله لقد سمعتُ كلاماً ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة، وإن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لَمُثْمِر وإن أسفله لَمُغْدِق، وما هو بقول بَشَر، وإنه لَيَعْلُوا ولا يُعْلَى».

ولما أكرهه أصحابه المشركون على أن يقول قولاً ينصر آلهتهم ويُرضيهم، لم يتمكّن من إخفاء الصراع الذي في نفسه، فاسْتَمْهَلَهُم وَقْتاً لِيُفَكِّر، ثم خرج ليقول: إن القرآن سحر يُؤْثَر يأخذه محمدٌ مِنْ بعض العالمِينَ بالسِّحْر.

فأنزل الله تعالى فيه: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ ﴿٢٤﴾﴾ [المدثر: 18–24].

فتأمّل هذه الآيات كيف صَوَّرت صِراعَهُ النَّفْسي، وتَكَلُّفه الشديد، ذلك التصوير المُعَبِّر الموحي، الذي صار مَثَلاً يُضرَبُ في الجهد العظيم، الذي يخرج بعده صاحبه بالقول الباطل العقيم.

القرآن المدني من حيث الأسلوب:

ومن سِمات أسلوب القرآن المدني:

1 ـ طول أكثر السور والآيات، كما هو واضح ظاهر من سورة البقرة وآل عمران مثلاً.

2 ـ أنها غالباً ما تسلك سبيل الهدوء، واللين في أسلوبها، واسترسال فواصلها.

والحكمة في اختيار هذا الأسلوب اشتمال القرآن المدني على الموضوعات السابقة، وهي تقتضي البسط والإسهاب، كما أن الخطاب في المدينة توجّه في أكثره للمؤمنين وذلك يناسب الهدوء واللين.

مناقشة المستشرقين حول المكي والمدني:

ومن ذلك نتبيّن فساد ما توهّمه بعض المستشرقين، ومَن تبعهم مِن ببغاوات تتلمذت عليهم من أبنائنا مِنْ توهُّم أو تصوُّر ما زُعِمَ من تأثر القرآن بالبيئة، وأن القرآن لما كان في مكة بين الأميين جاءت سور المكي وآياته قصيرة، ولما وجد في المدينة بين مثقفين متحيرين جاءت سور المدني وآياته طويلة، وجاء القرآن المكي لذلك خلواً من التشريع والأحكام، بينما القسم المدني مشحون بتفاصيل التشريع والأحكام، بل بلغ الأمر بهذا الزاعم أن قال: «إن القسم المكي يمتاز بالهروب من المناقشة، وبالخلو من المنطق والبراهين، فيقول: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون: 1-6].

بخلاف القِسْم المدني فهو يناقش الخصوم بالحجة الهادئة والبرهان الساكن الرزين فيقول: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾ [الأنبياء: 22].

هكذا يستدل هذا الزاعم بهذه الاستدلالات على ما تَوَهّمه مِنْ تأثُّر القرآن بالبيئة واقتباسه منها...»[1].

وهذا في الواقع تجنّ واختلاق، صادر عن سفيه جهول، أو آفك مغرض متحامل حقود، ونورد إلماحات وجيزة لردّ هذا الزعم فيما يلي:

1 ـ إن سمات المكي والمدني الأسلوبية وكذا الموضوعية خاضعة لقضية البلاغة الجوهرية والمسلّمة لدى كل ذي إلمام بالبلاغة والبيان عربياً أو غير عربي، وهي

(1) انظر تفاصيل هذه الفقرة ومناقشتها في كتاب: **«مناهل العرفان»** للزرقاني 1/ 198 - 232، و**«المدخل إلى دراسة القرآن الكريم»** لمحمد أبو شهبة ص: 232 - 251.

obeikandi.com

مراعاة مقتضى الحال، كما ذكرنا من قبل، لذلك نجد في المكي سوراً طوالاً بل من أطول الطوال، ونجد في المدني سوراً قصاراً وفيها الآيات والفقرات القصيرة، بل من أقصر القصار، كما في سورة «الفتح» وسورة «الكوثر» وهي أقصر سورة في القرآن وهي مدنية كما ثبت بذلك الحديث الصحيح الذي لا يقاوم.

كذلك نجد في المدني شِدَّةً أحياناً، كما في هذه الآيات من مطلع سورة «الصف» المدنية بالاتفاق:

﴿سَبَّحَ لِلَّهِ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٢﴾ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُواْ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصف: 1-3].

بل نجد في المدني ما بلغ الغاية في الشدَّة والتخويف، كما في قوله تعالى في سورة آل عمران :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾ [آل عمران: 130-132].

كان الإمام أبو حنيفة يقول[1] في هذه الآية: ﴿وَٱتَّقُواْ ٱلنَّارَ ٱلَّتِيٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ﴾ هي أخوف آية في القرآن، حيث أوعد الله المؤمنين بالنار المعدة للكافرين إن لم يتّقوه في اجتناب محارمه.

كما قد نجد كذلك في المكي اللين والعفو البالغ أقصاه، كقوله تعالى في سورة «فصلت»:

﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَمَا يُلَقَّىٰهَآ إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾﴾ [فصلت: 33-35].

2 ـ إنّ ادِّعاء خلوّ القرآن المكّي من الحُجَج والأدلّة قَلْبٌ للقضايا، وعكس

---

(1) «تفسير الكشاف» للزمخشري 1/ 318.

obeikandi.com

للأوضاع ومناقضة للحقائق، فالقرآن المكي من سماته الموضوعية كما ذكرنا اعتناؤه بالدلائل العلمية الكونية على عظمة الله تعالى ووحدانيته، وعلى إبداع حكمته وجليل علمه وقدرته، حتى كانت فيه دلائل الإعجاز العلمي، الذي أُلّفت ولا تزال الكتب تُؤَلَّف في كشف عجائب هذا الإعجاز، وأسرار دلالته على موافقة ما يكشفه العلم بعد هذه القرون والحقب الطوال.

وكذلك نجد في القرآن المكي الدلائل العقلية القاطعة على حَقِّيَّةِ التوحيد، والقيامة، وبعث الرسل وغير ذلك، وقد سبقت لنا آيات من سورة «يسٓ» في دلائل القيامة، وانظر قوله تعالى في إثبات التوحيد في سورة «المؤمنون» المكية:

﴿مَا ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُۥ مِنْ إِلَٰهٍ ۚ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿٩١﴾ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ فَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [المؤمنون: 91-92].

3 ـ إن هذا الزاعم قد حكم على نفسه بالجهل المُطْبَق أو التجاهل والتجنّي المُهلك، فإن الآية التي أوردها على أنها من المدني: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَا﴾، إنما هي من القرآن المكي، وهي الآية (22) من سورة الأنبياء، وهي مكية كلها، وهذه الآية مكية بالإجماع.

وهكذا كان دأب الباطل أن يتخذ الإفك وتحريف الحقائق ذريعة يسند إليها باطله وجحوده، سواء كان صاحبه جاهلياً قديماً، أو عصرياً حديثاً، ويريد الله أن يحق الحق ويبطل الباطل ولو كره الجاحدون.

5 ـــ علم ترتيبُ آياتِ القرآن وسُوَرِهِ(*)

يتألف القرآن الكريم من وحدات موضوعية تُسَمَّى (السُّوَر). وعددها في القرآن (114) أولها الفاتحة، فالبقرة، فآل عمران، فالنساء... وآخرها الناس، على الترتيب الموجود في المصاحف الآن.

وتتألّف كل سورة من مجموعة من (الآيات) أقلّها ثلاث وهي (الكوثر) وأكثرها (286) وهي البقرة، ويتفاوت العدد بينهما طولاً وقصراً، ومجموع آيات القرآن (6236) آية.

قال محمود بن حمزة الكرماني (ت 500 هـ) في كتابه «**البرهان في توجيه متشابه القرآن**»: (ترتيب السُور هكذا هو عند الله، وفي اللوح المحفوظ، وهو على هذا الترتيب، كان يَعْرِضُ عليه السلام على جبريل كلَّ سنة ما كان يجتمع عنده منه، وعرض عليه في السنة التي توفي فيها مرتين»[1].

(*) للتوسع في هذا النوع انظر: «**فضائل القرآن**» لأبي عبيد، ق62/ أ (مخطوطة توبنجن)، و«**الفهرست**» لابن النديم ص: 40، الكتب المؤلفة في عدد آي القرآن، و«**مقدمة المحرر الوجيز**» لابن عطية 1/ 64، باب ذكر جمع القرآن وشكله ونقطه وتحزيبه وتعشيره، و«**فنون الأفنان**» لابن الجوزي: 233 – 252، و«**مقدمة تفسير القرطبي**» 1/ 59، و«**الإتقان**» للسيوطي 1/ 184 – 199، النوع التاسع عشر: في عدد سوره وآياته وكلماته وحروفه، و«**مفتاح السعادة**» لطاش كبري زادة 2/ 358، علم معرفة عدد سوره وآياته وكلماته وحروفه، و«**كشف الظنون**» 1/ 418، تعداد الآي، و«**أبجد العلوم**» للقنوجي 2/ 500، علم معرفة عدد سور القرآن وآياته وكلماته وحروفه، و«**مناهل العرفان**» للزرقاني 1/ 331 – 354، المبحث التاسع في ترتيب آيات القرآن وسوره، و«**البرهان القويم في الحاجة إلى عدّ آي القرآن الكريم**» لأحمد أمين (مقال في مجلة المنار مج9، س 1324هـ/ 1906م) و«**ترتيب الآيات والسور**» لعبد العظيم الغباشي (مقال في مجلة كلية الشريعة بجامعة بغداد، ع2، عام 1386هـ / 1966م) و«**سور القرآن في مصحف عثمان**» لعبد المتعال الصعيدي (مقال في مجلة الأزهر مج18، ع6، 1366هـ / 1946م) و«**معجم الدراسات القرآنية**» لابتسام الصفار ص: 24، و«**معجم مصنفات القرآن**» لعلي شواخ 1/ 25، 73، آيات القرآن، و«**مباحث في علوم القرآن**» لصبحي الصالح: 97 – 98.

(1) «**البرهان**» للزركشي 1/ 357.

obeikandi.com

وقال الزركشي (ت 794 هـ) في «**البرهان**»: (فأمّا الآيات في كل سورة، ووضع البسملة أوائلها فترتيبها توقيفيٌ بلا شك ولا خلاف فيه)(1).

فما هو تعريف السورة، والآية، وكيف وصلنا القرآن الكريم مُرتَّباً، وقد نزل خلال ثلاثة وعشرين سنة مُفرّق الآيات والسُّور، وحسب الوقائع والأحداث؟

تعريف الآية:

الآية في اللغة: أصلها بمعنى العَلاَمَة، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ﴾ [البقرة: 248].

وأما في اصطلاح علم القرآن الكريم: فهي قرآن مُرَكَّب من جمل ولو تقديراً، ذو مَبْدَأ ومَقْطَع مُنْدَرِج في ضمن سورة.

سُمِّيت آيةً لمناسبات عدة، أَوْلاها في اختيارنا: أنها علامة على صدق مَنْ أتى بها، وعلى عجز المُتَحَدَّى بها(2).

تعريف السورة:

للسورة في اللغة إطلاقات متعددة، لعلّ أقربها هنا أنها مأخوذة مِنْ سُورِ المدينة، أو من السورة بمعنى المرتبة والمنزلة الرفيعة، على حد قول النابغة:

ألم ترَ أن الله أعطاك سُورَةً ... ترى كل مَلْكٍ دونها يتذبذب

أي أعطاك منزلة عالية على غيرك من الملوك.

أما في الاصطلاح فالسورة: قرآن يشتمل على آيٍ ذواتِ فاتحة وخاتمة، وأقلها ثلاث آيات.

ومناسبة التسمية واضحة، لأنها كالسُّور تُحِيط بآياتها وتجمعها كاجتماع البيوت بالسور، أو لعلوّ قدرها وشرفها(3).

(1) «**البرهان**» للزركشي 1/ 353.
(2) المصدر السابق 1/ 266.
(3) المصدر السابق 1/ 263.

وفي تقسيم القرآن إلى سور وآيات فوائد كثيرة، وحكم جليلة تَعَرَّض العلماء لها، نذكر إجمالات من كلامهم عنها فيما يلي:

قال الزمخشري: الفائدة في تفصيل القرآن وتقطيعه سوراً كثيرة:

منها: أن الجنس إذا انطوت تحته أنواع وأصناف كان أحسن وأفخم من أن يكون باباً واحداً.

ومنها: أن القارىء إذا ختم سورة أو باباً من الكتاب ثم أخذ في آخر كان أنشط له، وأبعث على التحصيل منه لو استمر على الكتاب بطوله، ومثله المسافر إذا اقتطع ميلاً أو فرسخاً وانتهى إلى رأس برية نفّس ذلك منه ونشَّطه للسير، ومن ثمة جُزِّىء القرآن أجزاءً وأخماساً.

ومنها: أن الحافظ إذا حَذَق السورة اعتقد أنه أخذ من كتاب الله طائفة مستقلة فيعظم عنده ما حفظه، ومنه حديث أنس: «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جَلَّ فينا»، ومن ثم كانت القراءة في الصلاة بسورة أفضل.

ومنها: أن التفصيل يُسبِّب تلاحق الأشكال والنظائر وملاءمة بعضها لبعض، وبذلك تتلاحظ المعاني والنظم، إلى غير ذلك من الفوائد.

تدرج نزول الآيات والسور:

اتخذ النبيُّ ﷺ كُتّاباً للوحي، فيهم الخلفاء الأربعة، ومعاوية، وزيد بن ثابت، وأُبيّ بن كعب، وخالد بن الوليد، وثابت بن قيس... كان يأمرهم بكتابة كل ما ينزل من القرآن خلال ثلاثة وعشرين عاماً، حتى تُظاهِرَ الكتابة جمعَ القرآن في الصدور.

وقد أخرج الحاكم في «**المستدرك**» بسند على شرط الشيخين، عن زيد بن ثابت أنه قال: «كنا عند رسول الله ﷺ نؤلِّف القرآن من الرّقاع»[1].

وكلمة «الرِّقاع» في الحديث (وهي جمع رقعة، وقد تكون من جلد أو ورق أو كاغد) تشعرنا بنوع أدوات الكتابة المتيسرة لكُتّاب الوحي على عهد رسول الله ﷺ، فكانوا يكتبون الآيات في اللِّخاف (جمع لخفة وهي الحجارة الدقاق أو صفائح

(1) الحاكم النيسابوري «**المستدرك على الصحيحين**» 2/ 611.

الحجارة) والعُسُب (جمع عسيب وهو جريد النخل كانوا يكشفون الخوص ويكتبون في الطرف العريض) والأَكْتَاف (جمع كتف وهو عظم البعير أو الشاة يكتبون عليه بعد أن يجف) والأَقْتَابِ (جمع قتب وهو الخشب الذي يوضع على ظهر البعير ليركب عليه) وقِطَع الأديم أيِ (الجلد)(1).

ترتيب السور والآيات

ومعنى تأليفُ القرآن من الرقاع ـ الوارد في حديث زيد ـ ترتيبُ السور والآيات وفق إشارة النبي ﷺ وتوقيفه. «فأما الآيات في كل سورة ووضع البسملة أوائلها فترتيبها توقيفي بلا شك، ولا خلاف فيه، ولهذا لا يجوز تعكيسها»(2) ويستدل على ذلك بما أخرجه البخاري عن ابن الزبير قال: قلتُ لعثمان: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا﴾ [البقرة: 224]، قد نسختها الآية الأخرى، فلم تكتبها أو تدَعُها؟ (المعنى: لماذا تثبتها بالكتابة أو تتركها مكتوبة وأنت تعلم بأنها منسوخة) قال: «يابن أخي، لا أغيّر شيئاً من مكانه»(3)، فعثمان لا يجرؤ على تغيير آية من مكانها، ولو ثبت له أنها منسوخة، لأنه يعلم أن ليس له ولا لغيره دخل في ترتيب آيات القرآن بعد أن وقف جبريل رسول الله على ترتيبها، ووقف رسول الله بدوره كتبة الوحي على ذلك. أخرج أحمد بإسناد حسن عن عثمان بن أبي العاص قال: كنت جالساً عند رسول الله ﷺ إذ شخص ببصره ثم صوّبه ثم قال: «أتاني جبريل فأمرني أن أضع هذه الآية هذا الموضع من هذه السورة: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَـٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ﴾ [النحل: 90] إلى آخرها(4). وفي كتب السنّة كثير من الأحاديث التي تُصوّر رسول الله ﷺ يُملي القرآن على كُتّاب

(1) انظر شرح هذه الكلمات في «الإتقان» 1/ 101.

(2) هذه عبارة الزركشي في «البرهان» 1/ 256، وقد أشار السيوطي إلى هذا الإجماع الذي نقله الزركشي حول ترتيب الآيات التوقيفي، ثم ذكر في هذا الموضوع عبارة لأبي جعفر بن الزبير في «مناسباته» يقول فيها: «ترتيب الآيات في سورها واقع بتوقيفه ﷺ وأمره من غير خلاف بين المسلمين» [انظر الإتقان 1/ 4]. والمراد من قول الزركشي «لا يجوز تعكيسها» وجوب التزام هذا الترتيب التوقيفي بين الآيات، بحيث لا يُقدَّم فيها ولا يؤخر. وميل الزركشي إلى هذا الرأي يزداد وضوحاً بقوله: «وفسر بعضهم قوله (ورتل القرآن ترتيلا) أي اقرأه على هذا الترتيب من غير تقديم ولا تأخير. وجاء النكير على من قرأه معكوساً «البرهان» 1/ 259.

(3) «صحيح البخاري» 6/ 29، وقارن «بالإتقان» 1/ 105.

(4) «الإتقان» السيوطي 1/ 104.

obeikandl.com

الوحي، ويوقّفهم على ترتيب الآيات.

وقد ثبت أنّه ﷺ قرأ سوراً عديدة بترتيب آياتها في الصلاة أو في خطبة الجمعة بمشهد من الصحابة، فكان ذلك دليلاً صريحاً على «أن ترتيب آياتها توقيفي، وما كان الصحابة ليرتّبوا ترتيباً سمعوا النبي ﷺ يقرأ على خلافه، فبلغ ذلك مبلغ التواتر»[1].

وأما ترتيب السور فتوقيفي أيضاً، وقد عُلمَ في حياته عليه السلام، وهو يشمل السور القرآنية جميعاً، ولسنا نملك دليلاً على العكس، فلا مسوغ للرأي القائل إن ترتيب السور اجتهادي من الصحابة، ولا للرأي الآخر الذي يفصّل: فمن السور ما كان ترتيبه اجتهادياً، ومنه ما كان توقيفياً.

ويدلُّ الإجماع على ذلك أيضاً، فإن الصحابة قد أجمعوا على هذا الترتيب وقرأوا به في صلواتهم، وفي المصاحف من غير مخالفة، ولو كان لدى بعضهم ممتند لترتيبه على غير ذلك لتمسّكوا به، لكنهم أجمعوا على التزام هذا الترتيب وترك ما سواه، ثم استمرت الأمة على ذلك من غير خلاف قط، فكان ذلك إجماعاً على الترتيب الذي في مصحف عثمان، ووجوب التزامه مدى الأزمان.

الرأي الراجح المختار إذن إن تأليف السور على هذا الترتيب الذي نجده اليوم في المصاحف هو - كتأليف الآيات على هذا الترتيب - توقيفيٌ لا مجال فيه للاجتهاد. على أن رسول الله ﷺ، رغم هذا التوقيف، لم يجد من الدواعي ما يحمله على جمع آيات كل سورة في صحائف عدة، ولا يجمع القرآن كلّه بين دفتي مصحف واحد؛ لأن القُرَّاء ومستظهري القرآن كانوا كثيرين، وكان عليه السلام يترقب توالي نزول الوحي عليه، وإمكان ناسخٍ لبعض أحكامه[2]، فالقرآن كله كتب في عهد رسول الله ﷺ غير مجموع في مصحفٍ واحد، فقد أغنى عن ذلك حفظ الصحابة له في صدورهم كما وقّفهم عليها الرسول ﷺ ونبّههم إلى مواضعها بتوقيف من الله. قال الزركشي: «وإنما لم يُكتب في عهد النبي ﷺ مُصحف لِئلاً يُفضِي إلى تغييره في كل وقت، فلهذا

(1) انظر على سبيل المثال «**صحيح البخاري**»: كتاب تفسير القرآن الباب الثامن عشر، وكتاب «**الأحكام**» الباب السابع والتسعون، و«**مسند أحمد**» 3/ 120 و4/ 381.
(2) «**الإتقان**» 1/ 98، و«**البرهان**» 1/ 235.

تأخرت كتابته إلى أن كمل نزول القرآن بموته ﷺ[1]».

وكان كل ما يُكْتَب يُوضَع في بيت رسول الله ﷺ، ويَنْسِخ الكُتّاب لأنفسهم نسخة منه، فتعاونت نُسَخ هؤلاء الكُتَّاب والصحف التي في بيت النبي ﷺ، مع حافظة الصحابة الأميّين وغير الأمّيّين، على حفظ القرآن وصيانته، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾ [الحجر: 9].

(1) «البرهان» 1/ 262.

obeikandl.com

6 ــ علم جَمْع القرآن(*)

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ﴾ [القيامة: 17] أي حفظه، وكتابته(1) وقد تمّ جمع القرآن خلال ثلاثة مراحل:

1 ـ جَمْعُهُ في الصدور والسطور في زمن النبي ﷺ.

2 ـ جَمْعُهُ بين دَفّتين في زمن أبي بكر الصديق.

3 ـ جَمْع الناسِ على مصحف واحد زمن عثمان بن عفان.

أولاً: جَمْعُه في زمن النبي ﷺ

كان الوحي ينزل على رسول الله ﷺ بالسورة، أو بعضها، وبالآيات، فكان يحفظها في قلبه، ثم يأمر أصحابه الكَتَبَة بكتابتها، فيكتبون ما يُملي عليهم من حفظه في الصُحُف، ويحتفظ لنفسه بنسْخَةٍ منها في بيته، وينسخ من يشاء منهم لنفسه نسخة،

(*) للتوسع في هذا النوع انظر: «**مقدمة تفسير الطبري**» 1/ 20، و«**مقدمة تفسير ابن عطية**» 1/ 64، «**المرشد الوجيز**» لأبي شامة: 48 – 76، الباب الثاني في جمع الصحابة ﷺ القرآن وإيضاح ما فعله أبو بكر وعمر وعثمان. ومقدمة «**تفسير القرطبي**» 1/ 49، و«**البرهان**» للزركشي 1/ 326، و«**الإتقان**» للسيوطي 1/ 164 – 183، النوع الثامن عشر في جمعه وترتيبه، و«**مفتاح السعادة**» لطاش كبري زادة 2/ 356 – 358، علم معرفة جمعه وترتيبه و«**أبجد العلوم**» للقنوجي 2/ 495، علم معرفة جمعه وترتيبه، و«**مناهل العرفان**» للزرقاني 1/ 232 – 331، المبحث الثامن في جمع القرآن الكريم وما يتعلق به و«**مباحث في علوم القرآن**» للصالح: 65 – 89، الباب الثاني: تاريخ القرآن و«**مصاحف الأمصار وعظيم عناية هذه الأمة بالقرآن الكريم في جميع الأدوار**»، مقال لمحمد زاهد الكوثري، نشر في (مجلة الإسلام س 7، ع25، عام 1357هـ/ 1938م)، و«**المصاحف الكريمة في صدر الإسلام**» مقال لأسامة النقشبندي في (مجلة سومر مج 12، 1376هـ/ 1956م)، و«**ما هو سبب اختلاف الأئمة في كتابة القرآن**» مقال لمحمد النواوي في (مجلة الإسلام س 41، ع45، 1391هـ/ 1972م).

(1) انظر «**تفسير القرطبي**» 3207.

obeikandl.com

واشتُهر من بين الصحابة من كان يحفظ ما ينزل من القرآن. وهكذا فقد تضافر الحفظ في الصدور مع الحفظ في السطور، ولزيادة التثبيت كان جبريل يُعارض رسول الله ﷺ بالقرآن كل عام، فلما كان عام وفاته عارضه به مرتين.

قال ابن عباس: «كان النبي ﷺ أجْوَدَ الناس بالخَيْر، وأجود ما يكون في شهر رمضان، لأن جبريل كان يلقاه في كلّ ليلة في شهر رمضان حتى ينسلخ، يعرض عليه رسول الله ﷺ القرآن، فإذا لقيه جبريل كان أجود بالخير من الريح المرسلة» أخرجه البخاري[1].

وقال أبو هريرة: «كان يعرض على النبي ﷺ القرآن كل عام مرّة، فعُرض عليه مرّتين في العام الذي قُبض، وكان يعتكف كل عام عشراً، فاعتكف عشرين في العام الذي قُبض» أخرجه البخاري[2].

حفظ الصحابة للقرآن الكريم:

توفرت للصحابة العوامل التي تجعلهم يحرصون على حفظ القرآن إلى أقصى حدّ، وتجعل حفظ القرآن يتوفر فيهم إلى أبعد مدى، ومن تلك العوامل:

1 ـ قوّة ذاكرتهم الفذّة التي عرفوا بها واشتهروا، حتى كان الواحد منهم يحفظ القصيدة الطويلة من الشعر بالسمعة الواحدة.

2 ـ نزول القرآن منجّماً كما عرفنا من قبل.

3 ـ لزوم قراءة شيء من القرآن في الصلاة، وما هنالك من الفضل والثواب في تطويل المنفرد صلاته لنفسه.

4 ـ وجوب العمل بالقرآن، فقد كان هو ينبوع عقيدتهم وعبادتهم، ووعظهم وتذكيرهم، وقد ترجموه إلى سلوك وخلق وحضارة.

5 ـ حضّ النبي ﷺ على قراءة القرآن، والترغيب بما أُعد للقارىء من الثواب والأجر العظيم، والقوم أُميُون لا سبيل لهم إلّا الحفظ عن ظهر قلب، وقد حدّدت

---

(1) في «فضائل القرآن» 6/ 186.

(2) المصدر نفسه.

السُنّة أقصى مدّة للمسلم يختم بها القرآن شهراً، أو أربعين يوماً.

عن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: **«مَن قرأ حرفاً من كتاب الله فله به حسنة والحسنة بعشر أمثالها، لا أقول «ألم» حرف ولكن «ألف» حرف و«لام» حرف و«ميم» حرف»** أخرجه الترمذي[1].

وعن عبد الله بن عمرو، قال رسول الله ﷺ: **«اقرأ القرآن في شهر، قلت: إني أجد قوة، حتى قال: فاقرأه في سبع ولا تزد على ذلك»** متفق عليه[2].

6 ـ تعاهد النبي ﷺ الصحابة بتعليم القرآن: فكان الصحابة تلامذة للنبي ﷺ يتعلّمون منه القرآن، وكان النبي ﷺ شيخهم، يتعاهدهم بتعليم القرآن، فإذا أسلم أهل أُفُق أو قبيلة أرسل إليهم من القرّاء من يعلّمهم القرآن، وإن كان في المدينة ضَمّه إلى حلق التعليم في جامعة القرآن النبوية.

وقد وافتنا الوثائق الثابتة الصحيحة بنماذج عن كثرة الحُفّاظ بين الصحابة، فهذه حرب المرتدين في اليمامة يُقْتَلُ فيها سبعون من القُرّاء. بل ثبت بأوثق الإثباتات أنه ﷺ أرسل في وفادة واحدة لتعليم بعض القبائل سبعين من القُرّاء، وهم الذين غدر بهم المشركون في طريقهم وقتلوهم، كما في الصحيحين[3].

وإننا إذ نوضح هذا نذكّر أولاً جيلنا بواجبهم تجاه القرآن الكريم وأن يحذوا حذو سلفهم الصالح في حفظ القرآن، أو على الأقل أن يجعل المسلم من تحصيله ودرسه للقرآن حصّة كسائر ما يدرسه ويتحفظه من المعارف، ونذكّر ثانياً بتلك الصيانة الكبيرة الواسعة التي أُحيط بها القرآن منذ عصره الأول ولم يزل كذلك حتى وصل إلينا بنقل الكافة عن الكافة.

على أن التاريخ إذ يُسجِّل بدقة سمات مجتمع سلفنا، فإنه في الظواهر العامة لا يستطيع أن يسجل كل حالة على انفراد من حالات السمة العامة، إنما يسجل الحالات الخاصة والمتميزة عن سائر الأفراد فهو لا يسجل من الأطباء كل طبيب ولا من المهندسين كل مهندس ولا من العُبّاد كل عابد، ولا من الفقهاء كل فقيه، إنما يسجل من هؤلاء وهؤلاء الأفذاذ الذين بزوّا أقرانهم، وفاقوا أندادهم، حتى يكونوا كالمراجع

(1) جامع الترمذي، في «ثواب القرآن» 5/ 175، رقم 2910، وصحّحه.
(2) البخاري في «فضائل القرآن» 6/ 196، ومسلم في «الصوم» 3/ 162.
(3) البخاري في «الوتر» 2/ 26 ومواضع أخرى، ومسلم في «المساجد» 3/ 135 – 136.

obeikandi.com

لهم، وحتى لا يتبادر إلى الذهن لدى ذكر اختصاصهم غيرهم.

وقد أرشد النبي ﷺ أصحابه إلى كبار المقرئين ليأخذوا عنهم القرآن، كما أرشد وذكر مناقب اختص بها واحداً منهم أو اثنين بالذكر، ولم يفهم من ذلك أَحَدٌ حَصْرَ القضية فيهم.

عن مسروق أنه قال: «ذكر عبدُ الله بنُ عمرو عبدَ الله بن مسعودٍ فقال: لا أزالُ أحبِّه، سمعت النبي ﷺ يقول: «**خذوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود، وسالم، ومعاذ، وأُبيّ بن كعب**» أخرجه البخاري[1].

وعلى هذا النحو ورد الحديث عن قتادة قال: سألت أنس بن مالك رضي الله عنه: من جمع القرآن على عهد النبي ﷺ؟ قال: «أربعةٌ كلهم من الأنصار: أُبيُّ بن كعب، ومعاذُ ابن جبل وزيدُ بن ثابت، وأبو زَيد» أخرجه البخاري[2].

فقد ذكر أنس هؤلاء لمعنى خاص لاحظه، أو أنهم هم الذين حضروا لذهنه[3].

وقد تنوعّت المواصفات التي سردت فيها قوائم القُراء من الصحابة، فهناك الأئمة الذين اشتهروا أكثر، وكانوا مصادر تَلَقّى عنهم المسلمون وهم سبعة: «عثمان بن

---

(1) صحيح البخاري، في «فضائل القرآن» 6/ 186.

(2) م. ن 6/ 187.

(3) وأما رواية أنس: «مات النبي ﷺ ولم يجمع القرآن غير أربعة: أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد»، أخرجها البخاري أيضاً عقب الرواية السابقة، فليس يصلح أن نأخذ منها ما يخلّ بما قدمنا الدلالة القاطعة عليه.

أما السند: فقد انتقده العلماء بأنه خالف الرواية الأولى وهي الأصح عند البخاري كما أشار لذلك البخاري نفسه، والمخالفة جاءت من وجهين: أحدهما التصريح بالحصر، والآخر ذكر «أبي الدرداء» بدل «أُبيّ بن كعب»، وقد استنكر جماعة من الأئمة الحصر في الأربعة.

وأما المتن: فلا يصلح فهمه على معنى نفي الحفظ عن غير هؤلاء، وحسبنا حديث أنس الأول دليلاً حاسماً في المسألة، وغاية ما هنالك أن الراوي فهم الحصر من الحديث فرواه على المعنى الذي فهمه، فأخطأ فيه، وخالف الثقات، لذلك قال الإمام البيهقي في المدخل «الرواية الأولى أصح».

وأجيب عن المتن على تقدير صحته وسلامته من أي علة بأن المراد به الحصر الإضافي لا الحقيقي، والمعنى: لم يجمعه على جميع الأوجه والأحرف والقراءات التي نزل بها إلا أولئك النفر. «**الإتقان**» 1/ 70، ولا يشكل على ذلك ورود الرواية في البخاري لأن البخاري قد يورد الحديث من أكثر من وجه، لبيان قوة أصل الحديث، والتنبيه على ما في بعض الروايات فلا يقدح ذلك فيه، لأن العمدة على الأصل.

obeikandi.com

عفّان، وعلي بن أبي طالب، وأُبيُّ بن كعب، وزيد بن ثابت، وعبد الله بن مسعود، وأبو الدرداء، وأبو موسى الأشعري)(1).

وهناك آخرون كثيرون ذكرهم العلماء.

وقد ذكر الإمام أبو عُبيد القاسم بن سلاّم (ت 224 هـ) في كتاب «**السبع في القراءات**» الذي صنّفه(2)، القُرّاء من أصحاب النبي ﷺ، فعدّ من المهاجرين: الخلفاء الراشدين الأربعة، وطلحة بن عبيد الله وسعد بن أبي وقاص، وعبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وسالماً مولى أبي حذيفة، وأبا هريرة، وعبد الله بن السائب، والعبادلة (وهم: عبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمرو بن العاص، وعبد الله بن الزبير)، وعائشة، وحفصة، وأم سلمة.

وحفظ القرآن من الأنصار في حياة النبي ﷺ: عُبادة بن الصامت، ومعاذ أبو حليمة، ومُجَمِّع بن جارية، وفضالة بن عُبَيْد، ومَسْلَمَةُ بنُ مُخَلَّد.

لكن هذا التعداد ليس للحصر قطعاً، فهناك أُبيُّ بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد ابن ثابت، وأبو الدرداء، وأنس بن مالك.

وقد أضاف الإمام الذهبي (ت 748 هـ)(3) جملة من القُرّاء إلى ما ذكره أبو عُبَيْد (ت 224 هـ) وهناك غيرهم كثير يستخرجهم القارىء من دراسة الكتب المؤلَّفة في الصحابة، ومما تتوارد به الروايات في المراجع(4).

وهكذا ثبت حفظ الصحابة للقرآن في صدورهم بما يبلغ رتبة التواتر بل يزيد عليها أضعافاً، تجعلنا نتيقن ما قاله الإمام أبو الخير بن الجزري: «إن الاعتماد في نقل القرآن على حفظ القلوب والصدور لا على حفظ المصاحف والكتب أشرف خصيصة من الله تعالى لهذه الأمة».

---

(1) «**الإتقان**» 1/ 72.

(2) كما نقل عنه السيوطي في «**الإتقان**» 1/ 72 وقال إنه صرح بأن بعضهم كمله بعد النبي ﷺ وهذا لا يُخِلّ.

(3) في «**طبقات القراء**» كما نقل عنه الزركشي في «**البرهان**» 1/ 242 - 243.

(4) ومن ذلك: أبو زيد الذي ورد اسمه في الصحيح. وكمثل هذه الصحابية التي وجدها السيوطي ولم يعدها أحدٌ وهي أم ورقة بنت عبد الله بن الحارث: وكان رسول الله ﷺ يزورها ويسميها الشهيدة، وكانت قد جمعت القرآن، انظر «**الإتقان**» 1/ 72، وكذلك أبو أمامة، وكان يقرىء في مسجد دمشق مع أبي الدرداء.

obeikandl.com

وذلك مصداق البشارة التي وردت عن الأنبياء السابقين في وصف هذه الأمة: «أناجيلهم في صدورهم»، وهو تحقيق للحديث القدسي: «إني مُبْتَليك ومُبْتَلٍ بك، ومُنَزِّلٌ عليك كتاباً لا يغسله الماء تقرؤه نائماً ويقظان...»(1)، كما أن هذا من تحقيق الإعلان القرآن الذين كرره القرآن وأكده:

﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ [القمر: 17].

جمع القرآن الكريم تدويناً في السطور

هذا الجمع هو لون من الحفظ يدوم مع الزمان، ولا يذهب بذهاب الإنسان، فلا غرو أن يتحقق أكمل تحقق لهذا الكتاب الذي تكفل الله تعالى بحفظه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: 9].

وقد وافق الجمع بالكتابة كل نجم من نجوم هذا القرآن منذ أن تنزّل هذا النجم بالوحي، إلى أن تكامل العمل بجمعه في المصحف جمعاً محوطاً بأشد أنواع العناية والحفاظ، حتى انتشر بين أمة الإسلام وهو في كل ذلك بإجماعها واطلاعها.

وتقتضي الدراسة الدقيقة تقسيم البحث في جمع القرآن إلى ثلاثة مراحل، كما قسمها المحققون من قبل.

جمع القرآن تدويناً على عهد النبي ﷺ:

لقد عُنِيَ ﷺ بكتابة القرآن عناية بالغة جداً، فكان كلما نزل عليه نجم دعا الكتاب فأملاه عليهم، فكتبوه على ما يجدونه من أدوات الكتابة حينئذ مثل الرِّقاع، واللِّخاف، والأكتاف، والعُسُب(2). وقد اشتهر أن عدد كتّاب الوحي خمس وعشرون كاتباً، لكنه فيما يبدو أكثر من ذلك بكثير. فقد بلغ عدد الكتّاب فوق الأربعين، حسبما أفاده الإحصاء المستقصي لبعض المُحقِّقين(3)، وقد حَصَرَ النبي الكريم جهد هؤلاء

(1) أخرجه مسلم في «الجنة» 8/ 158 - 159 في حديث طويل.

(2) الرقعة: القطعة من الأديم أي الجلد ونحوه، واللخاف الحجارة الرقيقة، والعُسُب: سعف النخل يكشط طرفه العريض ويكتب عليه.

(3) ابن حديدة الأنصاري في كتابه «المصباح المُضِيّ في كُتّاب النبي العربي» وقد بلغ عدد الكتّاب عنده أربعة وأربعين.

الكتّاب في كتابة القرآن فمنع من كتابة غيره إلا في ظروف خاصة أو لبعض أناس مخصوصين، كما في الحديث الصحيح: «لا تكتبوا عني شيئاً إلا القرآن، فمن كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحه» أخرجه مسلم[1].

فتحقَّق بذلك توفر طاقة كبيرة لكتابة القرآن وترتيبه، كما أخرج الحاكم[2] بسند على شرط الشيخين عن أنس رضي الله عنه قال: «كنّا عند رسول الله ﷺ نؤلِّف القرآن من الرقاع..»، ومقصود هذا الحديث فيما نرى هو أن «المراد به تأليف ما نزل من الآيات المفرقة في سورها وجمعها فيها بإشارة النبي ﷺ».

ومن هنا كان لا بد أن تتوفر نسخ كثيرة من القرآن مُدَوَّنة عند عدد من الصحابة مثل «أُبيّ بن كعب، وعبد الله بن مسعود، ومعاذ بن جبل، فبغير شك جمعوا القرآن، والدلائل عليه متظاهرة».

وكذلك السيدة عائشة رضي الله عنها.

وثمة نصوص تثبت كثرة كتابة القرآن وانتشاره مكتوباً، تؤكد ما ذهبنا إليه، نذكر منها، أن النبي ﷺ نهى عن أن يسافر بالقرآن إلى أرض العدو» متفق عليه[3].

وفي لفظ لمسلم (ت 261 هـ)، أن رسول الله ﷺ قال: **«لا تسافروا بالقرآن، فإني لا آمن أن يناله العدو»**.

وهذا ظاهر في وجود المصاحف عندهم مكتوبة كما أشار البُخاري (ت 256 هـ) في «صحيحه».

وكذلك كتابه ﷺ المشهور إلى عمرو بن حزم: **«أن لا يَمَسَّ القرآنَ إلّا طاهِر»** أخرجه مالك والنسائي وابن حِبّان[4].

وقد تظاهرت الأخبار أن سبب إسلام عمر بن الخطاب هو سماعه القرآن يُقْرَأُ في المصحف من سورة طه.

---

(1) مسلم في **«الزهد»** 8/ 29، و**«أحمد»** 3/ 21 بلفظه.
(2) **«المستدرك»** 2/ 229، وانظر **«المرشد الوجيز»**، لأبي شامة ص: 44 - 45.
(3) **«البخاري»** 4/ 56، و**«مسلم»** 6/ 30.
(4) **«الموطأ»** 1/ 157، و**«النسائي»** 8/ 57، و**«موارد الظمآن»** ص: 203.

obeikandi.com

وغير ذلك من الأخبار في هذا الباب يثبت وجود القرآن عندهم مكتوباً في نسخ عديدة لديهم في عهد النبي ﷺ. وبذلك تحقَّق للقرآن على عهد النبي ﷺ الحفظ التام بنوعيه: حفظ الصدور وحفظ السطور.

ثانياً: جمع القرآن على عهد الخليفة أبي بكر الصديق رضي الله عنه (13هـ)

ثم لاحت في الأفق إشارات تحذّر من الخطر، وذلك نتيجة القتل الكثير الذي وقع في صفوف الصحابة في حروب الردة، وكان قرّاؤهم أكثر إقداماً بين مقاتليهم، فكثر فيهم القتل حتى دعا ذلك للتدبُّر في المستقبل الذي سيواجه فيه المسلمون فارس والرُّوم الدولتين الأعظم في العالم آنذاك، كما فصلت لنا الروايات الصحيحة القطعية الثبوت، نسوق منها هنا رواية الإمام البخاري:

أخرج البخاري (ت 256 هـ)(1): عن زيد بن ثابت رضي الله عنه (45 هـ) قال:

«أرسل إليّ أبو بكر مَقْتَلَ أهل اليمامة، فإذا عمر بن الخطاب (23 هـ) عنده، قال أبو بكر رضي الله عنه: إن عمر أتاني، فقال: إن القتل قد استحرّ يوم اليمامة بِقُرّاء القرآن، وإني أخشى أن يستحرّ القتل بالقُرّاء بالمواطن فيذهب كثير من القرآن، وإني أرى أن تأمر بجمع القرآن، قلت لعمر: كيف تفعل شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟، قال عمر: هذا والله خير، فلم يزل عمر يراجعني حتى شرح الله صدري لذلك، ورأيت في ذلك الذي رأى عمر، قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجل شاب عاقل لا نتّهمك، وقد كنتَ تكتبُ الوحيَ لرسول الله ﷺ، فتتبّع القرآن فاجمعه، فوالله لو كلّفوني نَقْل جَبَلٍ من الجبال ما كان أثقلَ عليّ مما أمرني به مِنْ جَمْعِ القرآن، قلتُ: كيف تفعلون شيئاً لم يفعله رسول الله ﷺ؟ قال: هو والله خير، فلم يزل أبو بكر يراجعُني حتى شرحَ الله صدري للَّذي شرح له صدر أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، فَتَتَبَّعتُ القرآن أجْمَعُه من العُسُب واللِّخافِ وصدور الرجال حتى وجدتُ آخر سورة التوبة مع أبي ـ عُمارة ـ خُزَيْمة ـ ابن ثابت ـ الأنصاري (37 هـ)، لم أجدها مع أحد غيره: ﴿لَقَدْ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ﴾ [التوبة: 128]، حتى خاتمة براءة، فكانت الصحف عند

(1) في «فضائل القرآن» باب جمع القرآن 1/ 183.

obeikandi.com

أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عمر حياته، ثم عند حفصة بنت عمر أم المؤمنين ﵂».

وهذا النّص يفيد تخوّف الصحابة وحسابهم للمستقبل الذي يوجب الحذر والاستعداد لما يطرأ للقراء في مجتمع فرض عليه الجهاد وأحدقت به الأعداء.

ويذكر الحديث ما اقتضاه العمل من الجهد في قول زيد: «فتتبَّعت القرآن أجْمَعُه من العُسُب واللِّخافِ وصدور الرجال».

إن هذا يعني في ضوء المعلومات الثابتة التي قدمناها معنى جليلاً هو أنه «طلب القرآن متفرّقاً ليُعارَض [1] بالمُجْتَمِع عند من بقي ممن جَمع القرآن، ليشترك الجميع في علم ما جُمع، فلا يغيب عن جمع القرآن أحد عنده منه شيء، ولا يرتاب أحد فيما يودع المصحف، ولا يشكّوا في أنه جُمِعَ عن ملأ منهم»[2].

وفي ضوء هذا نفهم قوله: «وجدتُ آخرَ سورة التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري، لم أجدها مع أحد غيره».

وروى البخاري (ت 256 هـ) عن ابن شهاب قال: «وأخبرني خارجة بن زيد بن ثابت، سمع زيد بن ثابت قال: «فقدتُ آيةً من الأحزاب حين نسخنا المصحف، فقد كنت أسمع رسول الله ﷺ يقرأ بها، فالتمسناها فوجدناها مع خزيمة بن ثابت الأنصاري: ﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَـٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ﴾ [الأحزاب: 23]، فألحقناها في سورتها في المصحف»[3].

فقد ورد من أكثر من طريق[4] أن زيداً وعمر بن الخطاب قاما بعمل جمع القرآن

---

(1) أي يُقابَل وتُدَقَّق نسخته.

(2) «**البرهان**» 1/ 238 - 239.

(3) أخرجه البخاري في «فضائل القرآن» 6/ 184.
وقد اخترنا أن قصة هذه الآية وقعت في جمع القرآن على عهد أبي بكر لاتحاد مخرج القصتين فإنهما ترويان عن زيد بن ثابت، أما الجمع على عهد عثمان فمن رواية أنس بن مالك، كما أنه من المستبعد جداً فقد شيء من مصحف أبي بكر، وعمل الصحابة في عهد عثمان إنما كان نشراً للمصاحف عن مصحف أبي بكر، وهو الذي جزم به الإمامان ابن كثير والزركشي.

(4) كما أخرجها ابن أبي داود في «**المصاحف**» ص: 12 و17، وانظر «**الإتقان**» 1/ 58.

هذا «وكان لا يقبل مِن أحد شيئاً حتى يشهدَ شهيدان».

وقد فُسِّر هذا القول بتفاسير مُتعدِّدة كلها تشير إلى غاية التثبُّت، ولعلّ أولاها عندنا هو الاستشهاد على أن ذلك كتب بين يدي رسول الله ﷺ، كما فسّره أبو شامة المقدسي (ت 665 هـ)، وعَلَمُ الدين السَّخَاوي (ت 643 هـ). ولذلك قال في آخر سورة التوبة: «لم أجدها مع غيره، أي لم أجدها مكتوبة على الشرط المذكور مع غيره».

وإلا فإن خاتمة براءة محفوظة عنده وعند غيره من الصحابة، مشهورة قد وردت أحاديث في فضلها.

وبهذا جُمِعَت نسخةُ المصحف بأدقّ توثّق ومحافظة، واستغرق هذا الجمع زُهاء سنة، هي مدة ما بين واقعة اليمامة ووفاة الصديق رضي الله عنه (13 هـ)، وأُودِعَتْ نُسْخَةُ المصحف لدى الخليفة لتكون إماماً تُواجه الأُمَّةُ به ما قد يحدث في المستقبل، ولم يبقَ الأمر موكولاً إلى النسخ التي بين أيدي كُتّاب الوحي، أو إلى حِفْظ الحُفّاظ وحدهم.

ويعجبنا في هذا ما قاله الإمام أبو عبد الله الحارث بن أَسَد المُحاسبي (ت 243هـ) في كتاب «**فهم السنن**»: «كتابة القرآن ليست مُحْدَثَة، فإنه ﷺ كان يأمر بكتابته، ولكنه كان مُفَرَّقاً في الرقاع والأكتاف والعسب، وإنما أمر الصدّيق بنسخها من مكان إلى مكان، وكان ذلك بمنزلة أوراق وُجدت في بيت رسول الله ﷺ، فيها القرآن منتشر، فجمعها جامع، وربطها بخيط حتى لا يضيع منها شيء»[1].

وما كان أقواه وأمتنه من خيط ذاك الذي جمع به الصحابة رضي الله عنهم كتاب الله تعالى.

وقد اعتمد الصحابة كلهم وبالإجماع القطعي هذا العمل وهذا المصحف الذي جمعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، وتتابع عليه الخلفاء الراشدون كلهم والمسلمون كلهم من بعده، وسجّلوها لأبي بكر الصديق منقبة فاضلة عظيمة من مناقبه وفضائله الجمة رضي الله عنه، أثنوا عليها وأشادوا بها، لكونه أوّل من جمع القرآن، أي هذا الجمع

(1) «**البرهان**» 1/ 238، و«**الإتقان**» 1/ 58.

العظيم الموثق، وحسبنا في ذلك ما ثبت عن عليٍّ بن أبي طالب رضي الله عنه أنه قال: «أعظم الناس في المصاحف أجراً أبو بكر، رحمة الله على أبي بكر، هو أول من جمع كتاب الله»[1].

(1) أخرجه ابن أبي داود في «المصاحف». والمراد أنه أول من جمع كتابَ الله الجمع الموثّق باطّلاع جميع المسلمين عليه، لما علمنا بالأدلة القاطعة الثبوت أن الصحابة كان عندهم القرآن مكتوباً.

obeikandl.com

ثالثاً: جمع القرآن على عهد الخليفة عثمان رضي الله عنه (35 هـ)

إن ما يُميّز السياسة الراشدية نظرها الثاقب الذي يتدبر الأمور، بل الذي يسبق الحوادث قبل وقوعها، كما سجّلها المؤرخون قديماً وحديثاً، وهكذا كان عمل الخليفة أبي بكر والصحابة في جمع المُصحف عدة ماضية آتت أعظم النتائج في مواجهة ما تطويه الأيام من تغيرات ومفاجآت[1]، فقد استجد في عهد الخليفة الراشدي الثالث عثمان بن عفان رضي الله عنه ما يوجب نشر هذا المصحف وتعميمه على الآفاق ليحقّق الغاية التي جُمِعَ لأجلها واستغرق تلك الجهود والأوقات.

أخرج البخاري (ت 256 هـ)[2] عن أنس بن مالك رضي الله عنه: أن حُذَيْفَةَ بن اليَمَان قَدِمَ على عثمان، وكان يغازي أهل الشام في فتح إرمينية وآذربيجان مع أهل العراق، فأفزع حُذَيفةَ اختلافُهم في القراءة، فقال حذيفة لعثمان: يا أمير المؤمنين، أدرِكْ هذه الأمة قبل أن يختلفوا في الكتاب اختلافَ اليهود والنصارى، فأرسل عثمان إلى حفصة أن أرسلي إلينا بالصحفِ ننسخها ثم نردها إليك، فأرسلت بها حفصة إلى عثمان، فأمر زيدَ بن ثابت، وعبدَ الله بن الزبير، وسعيد بن العاص، وعبد الرحمٰن بن الحارث بن هشام، فنسخوها في المصاحف، وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيد ابن ثابت، في شيء من القرآن فاكتبوه بلسان قريش، فإنما نزل بلسانهم ففعلوا، حتى إذا نسخوا الصحف في المصاحف ردّ عثمانُ الصحفَ إلى حفصة، وأرسل إلى كل أُفُقٍ بمصحف مما نسخوا، وأَمَرَ بما سِواهُ من القرآن في كل صحيفة أو مصحف أن يحرّق».

فقد أفادت هذه الرواية فوائد لها أهميتها في فهم العمل الذي قام به عثمان بن عفان رضي الله عنه، عُنِيَ العلماء ببحثها ودراستها:

---

(1) نُذكِّر هنا بمواقف الصحابة من رواية الحديث، لما برز قرن الفتنة، وظهر الكذب، وكيف واجهوا الموقف بأحكم الوسائل العلمية في المحافظة على الحديث النبوي.

(2) 6/ 183 – 184.

وأول ذلك: السبب الدافع للعمل الذي قام به الخليفة عثمان وهو اختلاف الناس في وجوه قراءة القرآن، حتى قرؤوه بلغاتهم ـ كما قال ابن التين[1] ـ على اتساع اللغات فأدّى ذلك بعضهم إلى تخطئة بعض، فَخُشِي من تفاقم الأمر في ذلك، فَنُسِخَتْ تلك الصحف في مصحف واحد مرتباً لسوره واقتصر من سائر اللغات على لغة قريش. . .».

وهذا يوضح لنا فرقاً جوهرياً بين عمل أبي بكر وعمل عثمان ﵄، وهو أن عمل أبي بكر كان جمع القرآن كله في نسخة معتمدة يشترك فيها الجميع لخشية أن يذهب من القرآن شيء بذهاب حَمَلَتِه، لأنه لم يكن مجموعاً في نسخة واحدة موثَّقة ذلك التوثيق، بل كان ما وجد من نسخ المصحف عند كُتّاب الوحي على مسؤوليتهم الخاصة.

وأما نوع الاختلاف الذي حدث بين الناس في القراءة فيلخصه لنا الإمام أبو بكر محمد بن الطيّب الباقلاني (ت 403 هـ) في «**الانتصار**» بأن عثمان «إنما قصد جمعهم على القراءات الثابتة المعروفة عن النبي ﷺ، وإلغاء ما ليس كذلك، وأخذهم بمصحف لا تقديم فيه ولا تأخير، ولا تأويل أثبت مع تنزيل. . . خشية دخول الفساد والشبهة على مَن يأتي بعد»[2].

ثم إنا نجد ما يدل على أن العمل في نسخ المصاحف ساهم فيه غير هؤلاء الأربعة المذكورين هنا، وقد أخرج ابن أبي داود من أربعة طرق عن محمد بن سيرين قال: «جمع عثمان اثني عشر رجلاً من قريش والأنصار، منهم أبيّ بن كعب. . .»[3].

وتوافينا روايات تفصيلية بأسماء صحابة آخرين سوى أعضاء اللجنة الرباعية ساهموا في نسخ المصاحف، حتى اجتمع من التتبع إحصاء أسماء تسعة نفر منهم، مما يقوي رواية الاثني عشر، ويشير إلى أن اللجنة الرباعية كانت هي الرئيسة، ورفدها في العمل خبراء، عملوا معها لكتابة المصاحف التي تكفي لحاجة المسلمين»[4].

---

(1) «**الإتقان**» 1/ 60، وقارن «**بفتح الباري**» 9/ 19.

(2) «**البرهان**» 1/ 235 – 236، و«**الإتقان**» الموضع السابق.

(3) «**المصاحف**» ص: 33 – 34، وانظر «**فتح الباري**» 9/ 16.

(4) قارن «**بفتح الباري**» 9/ 16 – 17، وفيه التتبع للزيادة على الأربعة. وراجع «**نكت الانتصار لنقل القرآن**»، للصيرفي ص: 367.

شروط الكتابة في المصاحف العثمانية:

وأما القواعد التي اتبعوها في كتابة المصاحف، فكانت أصولاً هامَّة سارت عليها الأُمَّة من بعد، وقد صرّح الحديث بقاعدة هامة منها، وحدثتنا الروايات عن غيرها، فمن مهمات ذلك:

1 ـ **اختيار حرف قريش**: لما جاء في الحديث: «وقال عثمان للرهط القرشيين الثلاثة: إذا اختلفتم أنتم وزيدُ بن ثابت في شيء من القرآن فاكتبوه بلسانِ قريش، فإنما نزلَ بلسانهم، ففعلوا».

وهذا لا يدل على إبطال بقية الأحرف السبعة، لما هو معلوم من قواعد رسم المصحف أنه غير مشكوك ولا منقوط، وأنه لم تثبت فيه ألفات المد حسب قواعد في رسم الألف وعدمها، فمثلاً (مالك) تكتب (مٰلك) و(الكتاب) تكتب (الكتٰب).

ومن هنا كان لقراءة رسم المصحف طريقن: الموافقة للرسم المكتوب تحقيقاً، والموافقة احتمالاً وتقديراً.

فقراءة (مٰلِكِ يوم الدين) مُوافقَةٌ للرسم تحقيقاً. وقراءة (مَالِك يوم الدين) مُوَافقَةٌ له تقديراً.

لكن لا تجوز أيّ قراءة يحتملها الرسم إلّا إذا ورد بها النقل المتواتر عن النبي ﷺ، كما هو مُقرّر في ضابط القراءة الصحيحة، غاية الأمر هنا أن يكون الرسم موافقاً للسان قريش تحقيقاً، ولغيرهم تقديراً[1].

2 ـ **إذا لم يمكن استيعاب كل الأوجه كُتِبَ بعض** المصاحف ببعض الأوجه، وكتب بعض آخر بأوجه أخرى مثل «ووصى»، «وأوصى».

3 ـ **تجريد المصحف عن كل ما ليس قرآناً**، حتى سرت هذه العبارة المأثورة التي تناقلها التابعون: «جرِّدوا المصاحف».

---

(1) وأما رواية أنهم اختلفوا في التابوت فقال القرشيون: التابوت، وقال زيد: التابوه، فرفع إلى عثمان فقال: اكتبوه «**التابوت**» فإنه نزل بلسان قريش، فهذه الرواية في إسنادها كلام، رواها الزهري مرسلة، وتفرَّد بوصلها من هو ضعيف، وانظر «**فتح الباري**» 9/ 17.

4 ـ التثبت البالغ في الرسم، كما قال كثير بن أفلح أحد الكاتبين مع اللجنة الرباعية: «فكانوا إذا اختلفوا في الشيء أخَّروه»، قال ابن سيرين: «أظنه ليكتبوه على العرضة الأخيرة»[1].

وقد ورد نحو ذلك بأكثر من وجه.

وبهذا كان عمل الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه متكاملاً في غاية الضبط والإتقان وقد حقق الهدف الذي قصد إليه من وراء هذا العمل من وجهين هما بيت القصيد:

أ ـ المحافظة على نص القرآن أن يدخل فيه ما ليس منه، أو أن يتعرَّض لأي تحريف، بسبب العوامل التي سبق ذكرها.

ب ـ اعتماد القراءات المتعددة المتواترة التي يمكن أن يقرأ بها القرآن، كما ذكرنا في قاعدة الرسم، وبذلك قضى الخليفة عثمان رضي الله عنه على الخصام بسبب القراءات بين المسلمين؛ لأن الجميع علموا شرعية ما يُقرأ به القرآن، لاعتماده على الأصل المُجْمَع عليه من الصحابة الكرام رضوان الله عليهم أجمعين.

يشير إلى هذا الهدف قول الخليفة عثمان رضي الله عنه يَرُد على الخارجين عليه اعتراضهم لحرقه المصاحف: «إنما منعتكم من الاختلاف...».

نشر الخليفة عثمان المصاحف في الأمصار:

تم العمل الضخم الذي قام به الخليفة عثمان رضي الله عنه وهو نسخ المصاحف بما لا يتجاوز كثيراً (سنة 25 هـ) التي هي سنة غزو المسلمين أرمينية كما يثبته التاريخ[2]، فأعاد عثمان الصحف إلى حفصة أم المؤمنين رضي الله عنها، ووزّع المصاحف على وجه يحقق المقصود، ويزيل الإشكال، فأرسل إلى كل مصر من الأمصار الإسلامية بمصحف من المصاحف التي نُسِخت، واحتفظ عنده بمصحف سمي «المصحف الإمام»، وقد وقع

---

(1) «**فتح الباري**» 9/16.

(2) خلافاً لما توهمه بعض السابقين ممّن لم يحقق، فزعم أنه كان سنة 30، ومن ثم جاء بعض الأجانب ليبني على هذا القول الساقط خيالات باطلة، وانظر تحقيق الترجيح في «**فتح الباري**» للحافظ ابن حجر.

obeikandl.com

الاختلاف في عدد هذه المصاحف، والمشهور أنها خمس على ما قرَّره السيوطي، لكن إذا أضفنا إليها المصحف الإمام كان المجموع ستة مصاحف.

ولاحظ الخليفة عثمان رضي الله عنه في هذا التوزيع إرداف الكتابة بالقراءة، وهي العمدة بالنسبة لقراءة القرآن التي تحتاج إلى التلقي من الأفواه، فأرسل إلى كل بلد قارئاً يرافق المصحف، ويقرأ بالقراءة الموافقة لرسم المصحف، على التوزيع التالي: زيد بن ثابت مُقْرِىء المصحف المدني، وعبد الله بن السائب مُقَرِىء المصحف المكي، والمغيرة بن شهاب مقرىء المصحف الشامي، وأبو عبد الرحمٰن السلمي مقرىء المصحف الكوفي، وعامر بن عبد القيس مقرىء المصحف البصري[1].

وفي مقابل ذلك أمر الخليفة عثمان رضي الله عنه بما سوى ذلك من المصاحف أن يحرّق، فاستجاب الصحابة كلّهم لذلك، وحمدوا صنيعه، حتى عبد الله بن مسعود نفسه، فإنه بعد أن امتنع قليلاً وافق طواعية، كما ثبت ذلك بالأدلة القاطعة الثابتة عنه[2].

وإنما صنع الخليفة عثمان رضي الله عنه ذلك بهذه المصاحف الفردية لإزالة جذور الخلاف ومنابته.

وقد انعقد إجماع الأمة عَبْر كل العصور منذ عهد الصحابة على التزام المصحف الذي أجمع عليه الصحابة رضي الله عنهم، وعملت بذلك جميع الفرق الإسلامية، لا يسمح أحد بمخالفة المصحف لا في رسمه ولا ترتيبه.

وهذه المصاحف في مختلف البلاد الإسلامية ولدى مختلف الفرق المسلمة لا تختلف في شيء عن مصاحف أهل السنة، حتى في طريقة تقسيم السور وترقيمها، الأمر الذي أثبت بالدلالة القاطعة لكل العقلاء المنصفين على اختلاف أديانهم «أن المصحف الذي نسخه عثمان قد تواتر إلينا بدون أي تحريف على الإطلاق في النسخ التي لا حصر لها المتداولة في البلاد الإسلامية الواسعة، فلم يوجد إلا قرآن واحد لجميع الفرق الإسلامية المتنازعة، وهذا الاستعمال الإجماعي من الجميع للنص المقبول نفسه حتى اليوم يعدّ أكبر حجة ودليل على صحة النص المنزل الموجود معنا»[3].

---

(1) «مناهل العرفان» 1/ 396 - 397.

(2) انظر الآثار عنه في «المصاحف» لابن أبي داود، تحت عنوان «رضا عبد الله بن مسعود لجمع عثمان..».

(3) باختصار عن المستشرق (و. موير).

فضيلة عمل الخليفة عثمان رضي الله عنه:

وقد حمد المسلمون سَلَفاً فَخَلفاً لِعُثمان رضي الله عنه صَنِيعَه، حتى لقَّبوه جامع القرآن، لما «وُفِّقَ له من هذا الأمر العظيم، ورَفَعَ الاختلاف، وجَمَعَ الكلمة، وأراح الأمة»[1].

وقد ثبت عن الخليفة علي رضي الله عنه (40 هـ) أنه قال: «يا معشر الناس، اتقوا الله، وإيّاكم والغلو في عثمان وقولكم: «حَرّاق المَصَاحِف»، فوالله ما فعل الذي فعل في المصاحف إلّا عن ملأ منا»[2].

وقال علي رضي الله عنه أيضاً: «لو وُلِّيتُ ما وُلِّيَ عُثمانُ لعملتُ بالمَصاحِفِ ما عَمِلَ»[3].

وقد عنيت الأمة الإسلامية بهذه المصاحف العثمانية أكبر عناية، فاتخذت هذه المصاحف أصولاً يؤخذ منها، وأئمة يقتدى في كتابة المصاحف بها، حتى حدثنا الرحالون المسلمون العلماء، والأئمة الكبار عن نسخ من هذه المصاحف أو قطع منها شاهدوها في بلاد الإسلام، ولا تزال أجزاء هامة من بعض هذه المصاحف حتى عصرنا هذا تحتفظ بها بعض دور الآثار الضخمة وتزهو بها على العالم.

ويحدثنا الإمام ابن كثير الدمشقي المتوفى سنة (774 هـ) عن المصحف الشامي فيقول[4]: «أما المصاحف العثمانية الأئمة فأشهرها اليوم الذي في الشام بجامع دمشق عند الركن، شرقي المقصورة المعمورة بذكر الله، وقد كان قديماً بمدينة طبرية، ثم نقل منها إلى دمشق في حدود سنة 518، وقد رأيته كتاباً عزيزاً، جليلاً، عظيماً، ضخماً، بخط حسن مبين، قوي، بحبر محكم، في رَقٍّ أظنه من جلود الإبل».

وقد ظل هذا المصحف مفخرة تزهو بها دمشق، ويحتضنها جامعها الأموي

---

(1) «**البرهان**» 1/ 239 و240.

(2) «**فتح الباري**» 9/ 15 والنص أخرجه ابن أبي داود في «**المصاحف**» ص: 30، وابن الأنباري والسياق لابن أبي داود، لكن الجملة الأولى من سياق ابن الأنباري، وانظر «**الإتقان**» 1/ 59، و«**مقدمتان في علوم القرآن**» ص: 46، و«**مناهل العرفان**» للزرقاني 1/ 155.

(3) «**المصاحف**» من أكثر من طريق ص: 19 و30 وانظر «**البرهان**» 1/ 240.

(4) في كتابه «**فضائل القرآن**» المطبوع في آخر «**تفسير ابن كثير**» 4/ 15.

الكبير، حتى كان الحريق الكبير الذي أصاب المسجد الأموي سنة 1310هـ، واحترق فيه هذا المصحف الجليل[1].

وهكذا سجلت الأمة الإسلامية بحفظها القرآن في الصدور والسطور منذ عهد الرسالة، ثم بصنيع الخليفة أبي بكر وصنيع الخليفة عثمان بن عفان والصحابة ـ رضي الله عنهم أجمعين ـ في نسخ المصاحف مَزِيَّة ليست لأُمَّة غيرها، هي اعتماد المسلمين على نُسَخ من كتاب ربهم، منقولة على غاية الدقة والتحرّي عن الأصل المكتوب عن نبيهم ﷺ، مع مقابلة ذلك كله بحفظه في صدور المسلمين كلهم، ثم نقله كذلك عَبْرَ أجيالهم، ليعترف لهم التاريخ على لسان المُوالي لهم والمخالف لدينهم بأنه أدقّ وأكمل مما يتوقعه أو يمكن أن يفعله أي إنسان، تحقيقاً لقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ﴿٤١﴾ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾﴾ [فصلت: 41-42].

المصاحف العثمانية في طور التجويد والتحسين:

نُسخت المصاحف العثمانية خالية من الشكل والنقط، فاحتملت ـ بكتابتها على هذا النحو ـ عدداً من الوجوه والقراءات التي كان الناس في الأمصار يميِّزون بينها بالسليقة، فلا يحتاجون لقراءتها سليمة إلى الشكل بالحركات ولا الإعجام بالنقط. وقد ظلّ الناس ـ كما يقول أبو أحمد العسكري الحسن بن عبدالله (ت 382هـ) ـ يقرؤون القرآن في مصحف عثمان بضعاً وأربعين سنة، حتى خلافة عبد الملك بن مروان سنة (65 هـ)، وحينئذ كثرت التصحيفات وانتشرت في العراق[2].

وأكبر الظن أنه لا يراد «**بالتصحيفات**» في هذه العبارة إلا ما كان يقع فيه الناس من اللبس في قراءة بعض كلمات القرآن وحروفه بعد أن اختلطوا بغير العرب، وبدأت العُجْمَةُ

---

(1) قال صبحي الصالح في كتابه «**مباحث في علوم القرآن**» ص: 89: (وقد ذكر لي الزميل الأستاذ الدكتور يوسف العش أن القاضي عبد المحسن بن عبد القادر الأسطواني (1275 - 1383هـ) أخبره بأنه قد رأى المصحف الشامي قبل احتراقه، وكان محفوظاً في المقصورة، وله بيت خشب. انتهى بحروفه.

(2) «**وفيات الأعيان**» 1/ 125 (ط. سنة 131 القاهرة) وفيما يتعلق بأبي أحمد العسكري هذا انظر «**بغية الوعاة**» للسيوطي ص: 221. وقد خلط بروكلمان بين أبي أحمد العسكري الحسن بن عبدالله (382هـ) وأبي هلال العسكري الحسن بن عبدالله (395 هـ) «**في تاريخ آداب العرب**» 1/ 27، ثم انتبه إلى ذلك وصحَّحه في الملحق.

تمسّ سلامة لغتهم[1]. وفي خلافة عبد الملك سنة 65 للهجرة خاف الأئمة أن يتطرّق التحريف إلى النص القرآني إذا ظلت المصاحف غير مشكولة ولا منقوطة[2]، ففكروا بإحداث أشكال معينة تساعد على القراءة الصحيحة، وفي هذا المجال يُذكَر كل من عُبَيْد الله بن زياد (ت 67هـ) والحجّاج بن يوسف الثقفي (ت 95هـ).

فأما ابن زياد فيُنسَب إليه أنه أمر رجلاً فارسيَّ الأصل بإضافة (الألف) إلى أَلْفَي كَلِمَةٍ حُذفت منها، فكان هذا الكاتب ينسخ (قالت) بدلاً من (قُلت) و(كانت) بدلاً من (كُنت)[3]، وأمّا الحجّاج فيقال: إنه أصلح الرسم القرآني في أحد عشر موضعاً، فكانت ـ بعد إصلاحه ـ أوضح قراءة وأيسر على الفهم[4]. وإلى مثل هذه التحسينات الإملائية كان يشير عثمان بقوله ـ إن صح ـ: «أجد فيه مَلاحِنَ سَتُصْلِحُها العَرَبُ»[5]، فالملاحن والتصحيفات ـ في هذا المقام ـ كلّها من هذا القبيل، إنما تتعلق بطريقة الرسم التي لا بدّ أن ينالها التغيير على اختلاف البيئات والعصور، أما النص القرآني نفسه فلا يتغيّر فيه شيء؛ لأنّه مجموع في صدور العلماء، يأخذه بعضهم عن بعض بالتلقّي والمشافهة وطرق التواتر اليقيني.

وتحسين الرسم القرآني لم يتم دفعة واحدة، بل ظلّ يتدرّج في التحسّن جيلاً فجيلاً حتى بلغ ذروة الجمال في نهاية القرن الثالث الهجري. ولا يعقل أن يكون أبو الأسود الدؤلي(69 هـ) هو وحده واضع أصول نقط القرآن وشكله. وقد اختلف العلماء قديماً في أول من نقط القرآن[6]، وتردّدت في هذا الموضوع أسماء رجال ثلاثة[7]: أبو

---

(1) «**المحكم**» للداني، 18 – 19.

(2) في «**المحكم**» 23 عن أبي بكر بن مجاهد: «أن الشكل والنقط شيء واحد، غير أن فهم القارىء يسرع إلى الشكل أقرب مما يسرع إلى النقط».

(3) ابن أبي داود، «**كتاب المصاحف**» 117.

(4) ابن أبي داود، «**كتاب المصاحف**» 117، وفي هذه الصفحة تذكر المواضع الأحد عشر.

(5) ابن أبي داود، «**كتاب المصاحف**» ص: 32.

(6) حتى لم يستبعد أبو عمرو الداني (444 هـ) أن يكون الصحابة هم الذين ابتدؤوا بالنقط ورسم الخموس والعشور: (**المحكم** 2).

(7) ويرى السيوطي في «**الإتقان**» (2/ 290) أنهم أربعة، بإضافة اسم الحسن البصري إليهم، مع أن الحسن لم يُعرف له نشاط إيجابي في نقط المصحف، غير أنه كان لا يرى كراهة النقط ولا يتشدد فيه كعلماء الصدر الأول، فقد «أخرج ابن أبي داود عن الحسن وابن سيرين أنهما قالا: لا بأس بنقط المصاحف» «**الإتقان**» =

obeikandi.com

الأسود الدؤلي (69 هـ) ـ وهو الأشهر ـ ويحيى بن يعمر (129 هـ) [1]، ونصر بن عاصم الليثي (89 هـ)[2].

أما أبو الأسود الدؤلي (69 هـ) فقد اشتهر بأنّه سبق إلى وضع مسائل في العربية[3] بأمر علي بن أبي طالب (40 هـ)، ويبدو أن نقطه للقرآن لم يكن إلا امتداداً لما يُظنّ من سبقه هذا[4]. ويتناقلون قصة في هذا الموضوع تومىء إلى شدة غيرته على لغة القرآن، فقد سمع قارئاً يقرأ قوله تعالى: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِيٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُۥ﴾ [التوبة: 3]، فقرأها بجرّ اللام من كلمة «رسوله»، فأفزع هذا اللحن أبا الأسود وقال: عزّ وجه الله أن يبرأ من رسوله! ثم ذهب إلى زياد والي البصرة وقال له: قد أجبتك إلى ما سألت. وكان زياد قد سأله أن يجعل للناس علامات يعرفون بها كتاب الله[5]، فتباطأ في الجواب حتى راعه هذا الحادث. وهنا جدّ جدّه، وانتهى به اجتهاده إلى أن جعل علامة الفتحة نقطة فوق الحرف، وجعل علامة الكسر نقطة أسفله، وجعل علامة الضمّة نقطة بين أجزاء الحرف، وجعل علامة السكون نقطتين[6]». ويرى بعض العلماء أن أبا الأسود إنما نقط القرآن بأمر عبد الملك بن مروان[7].

وفي هذه السلسلة حلقة أخرى يميل بعض العلماء إلى عدّها كذلك حلقة أولى،

= 2/ 290 فلعل تساهل الحسن في النقط وعدم كراهته له أن يكونا عمدة الباحث في ذكر الحسن بين أوائل الذين نقطوا المصاحف.

(1) ولد يحيى بن يعمر في البصرة في حدود سنة 45، وقضى شطراً من حياته في العراق ثم هاجر إلى خراسان. يقال: إنه روى في حداثته عن ابن عباس وابن عمر، وروى عنه قتادة (ت سنة 118). وقد أصبح ابن يعمر قاضي مرو، وتوفي في تلك المدينة سنة 129 – انظر **وفيات الأعيان** 2/ 226، ط. سنة 1310، **غاية النهاية في طبقات القراء** ص: 381، **بغية الوعاة** ص: 417). وفي **سير النبلاء** 4/ 251 أن وفاته قبل التسعين.

(2) نصر بن عاصم الليثي هو أحد قراء البصرة، أخذ عن أبي الأسود الدؤلي، ويحيى بن يعمر، وأخذ عنه أبو عمرو ابن العلاء. توفي سنة 89هـ – انظر **بغية الوعاة** 403، **طبقات القراء** (336).

(3) «**البرهان**» 1/ 378.

(4) ولذلك ينقل الزركشي في «**البرهان**» 1/ 250 عن المبرد قوله: «أول من نقط المصحف أبو الأسود الدؤلي». ومثله في **المحكم** 6.

(5) في «**البرهان**» 1/ 250 – 251، وذكر أبو الفرج: أن زياد بن أبي سفيان أمر أبا الأسود أن ينقط المصاحف.

(6) الزرقاني، «**مناهل العرفان**» 1/ 401، وقارن **بالإيضاح** لابن الأنباري 16/ 1 – 17/ 1.

(7) «**الإتقان**» 2/ 290.

حين يرون أن «أول من نقط المصاحف يحيى بن يعمر (129هـ)»[1]، ولا بدّ أن يكون ليحيى عمل في نقط القرآن، ولكن لا برهان بين أيدينا على أنّه كان حقاً أول من نقطه إلا أن يكون المراد أنّه أول من نقط المصاحف بمرو. وتبلغ قصة أوليته هذه ذروتها من الإحكام والحبك حين يزعم ابن خلكان أنّه كان لابن سيرين مصحف منقوط، نقطه يحيى بن يعمر[2]. ومن المعلوم أن ابن سيرين توفي سنة (110هـ)، فقد عرف إذن قبل هذا التاريخ مصحف كامل النقط، تام الشكل، بتلك النقط المعوضة للحركات: وهو أمر خطير جداً ليس من السهل التسليم به[3].

وأما نصر بن عاصم الليثي (ت 89 هـ) فلا يستبعد أن يكون عمله في نقط القرآن امتداداً لعمل أستاذيه أبي الأسود وابن يعمر، فإنّه أخذ عنهما كما أسفلنا، بيد أن أبا أحمد العسكري (382 هـ) ـ في إحدى رواياته الغريبة ـ يؤكّد أن نصر بن عاصم اضطلع بنقط القرآن حين خاطب الحَجّاج كتّابه وسألهم أن يضعوا علامات على الحروف المتشابهة[4]، وتكاد هذه الرواية تنطق بأن نصراً كان أول من نقط المصاحف[5]، ولكنها تظل ـ مع ذلك ـ أضعف من أن تفصل في هذا الخلاف برأي يقيني قاطع.

ولئن تعذّر إطلاق الحكم بأن أبا الأسود أو ابن يعمر أو نصراً كان أول من نقط المصاحف، فلا يتعذّر القول بأنهم أسهموا جميعاً في تحسين الرسم وتيسير قراءة القرآن على الناس. ولا ريب بعد هذا أن للحجّاج ـ مهما تختلف آراء الناس فيه، ومهما تك نياته الشخصية ـ عملاً عظيماً لا سبيل إلى إنكاره في الإشراف على نقط القرآن، والحرص عليه.

وكلما امتدّ الزمان بالناس ازدادت عنايتهم بتيسر الرسم القرآني، وقد اتخذ هذا

---

(1) **«المصاحف»** ص: 141، وقال بذلك أيضاً هارون بن موسى كما في (**المحكم** 5) والبخاري كما في **«غاية النهاية»** 2/ 381.

(2) **«وفيات الأعيان»** ط. سنة 1310، ج2/ 227 (وانظر **«البرهان»** 1/ 250).

(3) قارن بما يقوله المستشرق بلاشير (Blachére, Intre Cor 80)

(4) هذه الرواية من كتاب **«التصحيف»** لأبي أحمد العسكري، وقد نقلهما ابن خلكان 1/ 125، ط. سنة 1310.

(5) ويظهر أن هذا هو رأي الجاحظ، ففي **«البرهان»** 1/ 251، وذكر الجاحظ في كتاب **«الأمصار»** أن نصر بن عاصم أول من نقّط المصاحف وقارن **بالمحكم** 6.

التيسير أشكالاً مختلفة، فكان الخليل[1] أول من صنّف النقط، ورسمه في كتاب، وذكر علله[2]، وأول من وضع الهمزة والتشديد والرّوْم والإشمام[3]. ولا يكاد أبو حاتم السجستاني[4] يؤلف كتابه عن نقط القرآن وشكله حتى يكون رسم المصاحف قد قارب الكمال. حتى إذا كانت نهاية القرن الهجري الثالث بلغ الرسم ذروته من الجودة والحسن، وأصبح الناس يتنافسون في اختيار الخطوط الجميلة، وابتكار العلامات المميزة «حتى جعلوا للحرف المشدّد علامة كالقوس، ولألف الوصل جرة فوقها أو تحتها أو وسطها، على حسب ما قبلها من فتحة أو كسرة أو ضمّة»[5].

وما أكثر العقبات التي كانت تعترض اتجاه الناس نحو تحسين الرسم القرآني! فما برح العلماء حتى أواخر القرن الثالث يختلفون في نقط القرآن. وقد بدأت فكرة كراهة النقط مبكرة جداً منذ قال الصحابي الجليل عبد الله ابن مسعود: «جرِّدوا القرآن ولا تخلطوه بشيء»[6] ثم كان بين التابعين من كره حتى تطييب المصاحف بالطيب أو وضع أوراق الورد بين صحائفها[7]، وإذا الإمام مالك رحمه الله[8] في عصر أتباع التابعين يؤثر التفصيل في هذه المسألة، فيبيح النقط «في المصاحف التي تتعلم فيها العلماء، أما الأمهات فلا»[9]. وتظل الأوساط المحافظة ـ مع ذلك ـ تكره نقط المصاحف، فكان يظهر بين الحين والحين قوم معتدلون يفرّقون بين النقط والتعشير، وينبّهون الناس إلى أن النقط لا ينافي تجريد القرآن. قال الحليمي[10]: «تكره كتابة الأعشار

---

(1) هو الخليل بن أحمد الفراهيدي الأزدي، ويكنى أبا عبد الرحمٰن، إمام العربية في زمانه، ومستنبط العروض. توفي سنة 175 هـ.

(2) **المحكم** 9.

(3) **كتاب النقط** لأبي عمرو الداني ص: 133 (وانظر «**الإتقان**» 2/ 290).

(4) هو سهل بن محمد، المعروف بأبي حاتم السجستاني، من كبار اللغويين في عصره. توفي سنة 248. وقد ذكر ابن أبي داود في «**كتاب المصاحف**» مقتطفات من أقوال أبي حاتم في رسم القرآن: ص: 114.

(5) الزرقاني، «**مناهل العرفان**» 1/ 401.

(6) أخرجه أبو عبيد – انظر «**الإتقان**» 2/ 290، وقارن **بالمحكم** 10.

(7) كما رووا عن مجاهد: – انظر **المحكم** 15.

(8) هو إمام أهل المدينة، وأمير المؤمنين في الحديث، مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر الأصبحي ويكنى أبا عبد الله. استغرق تأليفه «**الموطأ**» أربعين سنة عرضه خلالها على سبعين فقيهاً من فقهاء المدينة. توفي سنة 179هـ.

(9) أبو عمرو الداني، **النقط**، 134؛ «**الإتقان**» 2/ 291.

(10) هو أبو عبد الله حسين بن الحسن الحليمي الجرجاني، أَجَلُّ كتبه «**المنهاج**» توفي سنة 403.

والأخماس وأسماء السور وعدد الآيات فيه، لقوله: «جرِّدوا القرآن». وأما النقط فيجوز، لأنّه ليس له صورة فيتوهم لأجلها ما ليس بقرآن قرآناً، وإنما هي دلالات على هيئة المقروء فلا يضر إثباتها لمن يحتاج إليها»[1].

على أن هذه التفرقة الواضحة بين النقط والتعشير[2] لم تكن لتمنع الأوساط المحافظة حتى في مستهل القرن الخامس الهجري من الإصرار على قراءة القرآن في المصاحف المجردة من الشكل، فلم يكن إحداث تلك العلامات في نظر هؤلاء المتشدّدين إلا بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. ومن الغريب أن بعضهم كانوا ـ كما يلاحظ الداني ـ يتساهلون في استعمال بعض النقط عوضاً عن الحركات، ولكنهم يأبون إباءً شديداً أن يشكلوا القرآن بالحركات نفسها وإن كان أكثر الناس في عصرهم لا يجدون في ذلك بأساً[3].

والداني نفسه كان يعترف بوجود التمييز بين النص القرآني المجرّد والحركات التي تزاد عليه للتوضيح، «فلا يستجيز النقط بالسواد لما فيه من التغيير لصورة الرسم، ولا يستجيز جمع قراءات شتى في مصحف واحد بألوان مختلفة لأنه من أعظم التخليط والتغيير للرسوم، ويرى أن تكون الحركات والتنوين والتشديد والسكون والمد بالحمرة والهمزات بالصفرة»[4].

ثم يأتي على الناس زمان يستحبّون فيه نقط المصحف بعد أن كرهوه، وشكله بالحركات بعد أن عارضوه، وكما خافوا أن يصيبه التغيير بالنقط والشكل أصبحوا يخافون أن يلحن الجهّال فيه إن لم ينقط ويشكل، فالحرص على نص القرآن كان السبب الأساسي في كراهة النقط تارة واستحبابه أخرى. قال النووي[5]: «نقط المصحف وشكله مستحب، لأنّه صيانة له من اللحن والتحريف»[6].

(1) «**الإتقان**» 2/ 291.

(2) التعشير: هو وضع علامة بعد كل عشر آيات.

(3) «**الداني، النقط**» 134 – 135.

(4) «**الإتقان**» 2/ 291 (وانظر الداني، **النقط** ص: 133).

(5) هو الإمام الحافظ محيي الدين أبو زكريا يحيى بن شرف النووي، من كبار المحدّثين. له في علوم الحديث تصانيف كثيرة مشهورة. ومن أشهر كتبه (**شرح صحيح مسلم**) توفي سنة 676هـ.

(6) «**الإتقان**» 2/ 291، والزرقاني في «**مناهل العرفان**» 1/ 402، ينقل عبارة النووي هذه بأطول مما ذكرنا، ونحن نثبتها هنا إتماماً للفائدة: «**قال النووي في كتابه «التبيان»** ما نصه: «قال العلماء: ويستحب نقط المصحف =

obeikandi.com

ومن المحدثات التي كرهها العلماء أول الأمر ثم انتهوا إلى إباحتها أو استحبابها أخيراً بدعة كتابة العناوين في رأس كل سورة، ووضع رموز فاصلة عند رؤوس الآي، وتقسيم القرآن إلى أجزاء، والأجزاء إلى أحزاب، والأحزاب إلى أرباع، والإشارة إلى ذلك كلّه برسوم خاصة.

والرموز المشيرة إلى رؤوس الآي سارع الناس إلى تلقّيها بالقبول قبل سواها، لاحتياجهم إلى معرفة تقسيم الآيات، ولا سيما بعد أن انعقد الإجماع على أن ترتيب الآيات توقيفي[1]. وقد تباينت طرائق رمزهم إليها، فقد يذكرون عند رأس كل آية رقم عددها من السورة، وقد يُغفلون ذلك. وأحياناً يضعون كلمة عشر أو رأس «العين» حرفها الأول عند نهاية كل عشر آيات من السورة[2]، أو كلمة خمس أو رأس «الخاء» حرفها الأول عند نهاية كل خمس آيات، ولا يجدون في شيء من ذلك بأساً.

أما العناوين التي كانوا يكتبونها في فواتح السور منوهين فيها بأسمائها وما فيها من الآيات المكية والمدنيّة، فكانت لا بدّ أن تثير معارضة عنيفة في الأوساط المحافظة، لأن كثيراً من العلماء بلْهَ عامة الناس، كانوا يعتقدون أن هذه الأمور ليست توقيفيّة، بل للصحابة فيها نصيب غير قابل من الاجتهاد. وإذا كنّا لم نسلّم بأن ترتيب السور اجتهادي، بل رجّحنا أنّه كترتيب الآيات توقيفي[3]، فإنّنا لا نملك دليلاً قويّاً على أن أسماء السور توقيفية أيضاً[4]، وليس في وسعنا أن ندّعي الإجماع على مكية بعض السور ومدنيّة بعضها الآخر بحيث لا يكون في السورة الواحدة إلا قول واحد

= وشكله، فإنه صيانة من اللحن فيه وتصفية. وأما كراهة الشعبي والنخعي النقط فإنما كرهاه في ذلك الزمان خوفاً من التغيير فيه. وقد أمن ذلك لكونه محدثاً. فإنه من المحدثات الحسنة، فلا يمنع منه كنظائره مثل تصنيف العلم وبناء المدارس والرباطات وغير ذلك، والله أعلم».

(1) ومع ذلك، اختلف العلماء في عدد الآي، وقد بين الزركشي (**البرهان** 1/ 251 – 252) أن سبب هذا الاختلاف «**أن النبي ﷺ** كان يقف على رؤوس الآي للتوقيف؛ فإذا علم محلها وصل للتمام، فيحسب السامع أنها ليست فاصلة».

(2) وفي «**البرهان**» 1/ 251: «وأما وضع الأعشار فقيل: إن المأمون العباسي أمر بذلك؛ وقيل: إن الحجّاج فعل ذلك».

(3) راجع ص: 127 إلى 128.

(4) قال الزركشي في «**البرهان**» 1/ 270: «وينبغي البحث عن تعداد الأسامي: هل هو توقيفي أو بما يظهر من المناسبات؟ فإن كان الثاني فلن يعدم الفطن أن يستخرج من كل سورة معاني كثيرة تقتضي اشتقاق أسمائها وهو بعيد». وانظر «**الإتقان**» 1/ 90.

obeikandi.com

متّفق عليه[1]؛ فهذا الاختلاف هو الذي أثار تلك المعارضة العنيفة لكتابة العناوين في فواتح السور. لكن حِدّة المعارضة ما لبثت أن خفّت[2]، فلم يقنع الناس بكتابة تلك العناوين بل طفقوا يتفنّنون في تنميقها وتذهيبها حتى أوشك الجهال أن يعتقدوا أنها جزء لا يتجزأ من الوحي القرآني.

ولمّا أباح الناس لأنفسهم كتابة الرموز الفاصلة بين الآيات، ثم تجرؤوا حتى على كتابة العناوين في رؤوس السور، لم يعد مُمكناً منعهم من الذهاب في تجويد المصاحف كل مذهب، وقد بدا لهم أن من تجويدها تجزئتها وتَحْزيبها، وراحوا يلتمسون على ذلك أدلّة من الروايات المأثورة. قال الزركشي: «وأما التحزيب والتجزئة فقد اشتهرت الأجزاء من ثلاثين كما في الربعات بالمدارس وغيرها. وقد أخرج أحمد في مسنده وأبو داود وابن ماجه عن أوس بن حذيفة أنّه سأل أصحاب رسول الله ﷺ في حياته: كيف تحزّبون القرآن؟ قالوا: ثلاث، وخمس، وسبع، وتسع، وإحدى عشرة، وثلاث عشرة. وحزب المفصّل من «قٓ» حتى يختم»[3].

وقد أسهم الخطّاطون في تجويد المصاحف وتحسين كتابتها، ويقال: إن الخليفة الوليد (من سنة 86 إلى سنة 96 هـ) اختار لكتابة المصاحف خالد بن أبي الهيّاج الذي كان مشهوراً بجمال خطّه وهو الذي خط المحراب في المسجد النبوي بالمدينة[4]. وقد ظلّ الخطاطون يكتبون المصاحف بالخط الكوفي حتى أواخر القرن الرابع الهجري[5]، ثم حلّ محله خط النسخ الجميل في أوائل القرن الخامس، وفيه جميع

(1) وانظر في «**الإتقان**» 1/ 18 – 23، الاختلاف حول مكّية بعض السور ومدنيّة بعضها. وتقدّم البحث حول (المكي والمدني) ص: 109.

(2) تجد في كتاب «**المصاحف**» لابن أبي داود ص: 158 وما بعدها وصفاً لموقف المعارضين والمتساهلين في كتابة هذه العناوين والرموز.

(3) «**البرهان**» 1/ 250 وهكذا شاعت قسمة القرآن إلى ثلاثين جزءاً. وطبعت أحياناً هذه الأجزاء مستقلة تيسيراً على صغار التلاميذ في المدارس. ثم شاعت قسمة كل جزء إلى جزئين، وقسمة الحزب إلى أربعة أرباع.

(4) انظر «**الفهرست**» لابن النديم، ص: 6، ط فلوجل سنة 1871.

(5) فيما يتعلق بأشكال الخطوط التي كتبت بها المصاحف انظر ما كتبه موريتز في دائرة المعارف الإسلامية. -
Morrtiz, Encyclopédie de l'Islam, article Arabie, 394
وفيما يتعلق بتفضيل الخط الكوفي انظر: Geschichte des Qorantexts, 251 sqq cf. Blach., Intr. 8 note 112

obeikandl.com

النقط والحركات التي ما نزال نستخدمها في الكتابة إلى يومنا هذا[1].

ويشاء الله أن ينتشر كتابه في الآفاق بوساطة الطباعة، وهذه أيضاً مرت ـ ككتابة القرآن خطّاً ـ بأطوار التجويد والتحسين. وقد ظهر القرآن مطبوعاً للمرة الأولى في البندقية في حدود سنة 1530م، ولكن السلطات الكنسية أصدرت أمراً بإعدامه حال ظهوره. ثم قام هنكلمان Hinkelmann بطبع القرآن في مدينة هانبورغ Hanbourg سنة 1694، ثم تلاه مراكي Marracci بطبعه في بادو Padoue سنة 1698، ولم يكن لأي واحدة من هذه الطبعات الثلاث أثر يذكر في العالم الإسلامي[2]. ثم ظهرت أول طباعة إسلامية خالصة للقرآن في سانت بترسبورغ بروسيا (Saint - Ptersbourg) سنة 1787، وهي التي قام بها مولاي عثمان، وظهر مثلها في قازان[3]. وإذا بإيران تقدم طبعتين حجريتين إحداهما في طهران سنة 1248هـ ـ 1828م، والأخرى في تبريز سنة 1248هـ ـ 1833م. ويقوم فلوجل Flugel سنة 1834 بطبعته الخاصة للقرآن في ليبزيغ Leipzig، فيتلقاها الأوروبيون بحماسة منقطعة النظير، بسبب إملائها الحديث السهل، ولكنها لا تصيب نجاحاً في العالم الإسلامي، وتظهر في الهند طبعات للقرآن أيضاً، ثم تعنى الآستانة ابتداء من سنة 1877 بهذا الأمر العظيم.

ثم كان حدث سعيد على جانب عظيم من الأهمية حين ظهرت في القاهرة طبعة أنيقة جميلة دقيقة لكتاب الله سنة 1342هـ ـ 1923م تحت إشراف مشيخة الأزهر، وبإقرار اللجنة المعيَّنة من قِبَل الملك فؤاد الأول، وقد كُتب هذا المصحف وضُبط على ما يوافق رواية حفص لقراءة عاصم. ولقد تلقَّى العالم الإسلامي هذا المصحف بالقبول وأصبحت ملايين النسخ التي تطبع منه سنوياً هي وحدها المتداولة، أو تكاد تكون وحدها متداولة، لإجماع العلماء في مشارق الأرض ومغاربها على الدقّة الكاملة في رسمه وكتابته.

---

(1) انظر: و133 .Blachére, Intr. Cor

(2) و133 .Blachére, Id

(3) اعتمدنا في دراسة هذه الأطوار في طبع القرآن على ما كتبه المستشرق بلاشير ,.Blachére, Intr. Cor 133Á

وقد اعتمد بلاشير بدوره – فيما يتعلق بالطبعات التي ظهرت قبل سنة 1810 – على ما كتبه كل من شْنُرر وبفنملّر. انظر: Schnurrer, Ch. F., Bibliotheca Arabica, nos 376 - 386 pfannmüller, Handbuch der Islam - Literatur, Berlin, 1925.

وقد ظهرت مؤخراً عام 1400هـ ـ 1980م، طبعة بخط الخطاط الدمشقي عثمان طه، ومراجعة لجنة من كبار علماء الأزهر والسعودية، روعي فيها الدقة المتناهية، فأُنشئت في المدينة المنورة مطبعة خاصّة لطباعته، بأمر من ملك السعودية خادِم الحرَمَين الشريفين (فهد بن عبد العزيز)، سُمِّيت بـ «مجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف» تمّت الاستعانة فيها بأكبر المهندسين الفنّيين، وأحدث الأجهزة الطباعية، وهي مجهزة لطباعة مليون نسخة من المصحف الشريف يومياً، وقد ملأت جميع بقاع الأرض بنسخ منه، وأصدرت عشرات الترجمات، للغات مختلفة، وافتتحت مركزاً للدراسات القرآنية يضم نخبة من القرّاء والعلماء للاهتمام بالمصادر الهامة في علوم القرآن لتحقيقها ونشرها. ولإعداد الدراسات الهامة عن القرآن الكريم.

فسبحان من تولى حفظ كتابه إلى قيام الساعة وصدّق وعده وقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ۝٩﴾.

obeikandl.com

7 ــ علم الناسخ والمنسوخ(*)

ذكر الله تعالى النسخَ في القرآن الكريم، فقال: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ ۗ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 106].

(*) للتوسع في هذا النوع انظر: «**الفهرست**» لابن النديم ص: 40 الفن الثالث من المقالة الأولى، و«**وفنون الأفنان في عيون علوم القرآن**» لابن الجوزي ص: 373 فصل التفسير، النسخ، المحكم والمتشابه، و«**الفوائد المشوق إلى علوم القرآن**» لابن قيم الجوزية ص: 244 القسم التاسع والثلاثون، و«**بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز**» للفيروز آبادي 1/ 117 الفصل الثامن فيما هو شرط من معرفة الناسخ والمنسوخ، و«**البرهان**» للزركشي 2/ 151، و«**الإتقان**» للسيوطي 3/ 59 - 77 النوع السابع والأربعون في ناسخه ومنسوخه، و«**مفتاح السعادة**» لطاش كبري زادة 2/ 405 علم معرفة ناسخ القرآن ومنسوخه، و«**كشف الظنون**» لحاجي خليفة 2/ 1920، و«**أبجد العلوم**» للقنُّوجي 2/ 511 معرفة ناسخ القرآن ومنسوخه، و«**إيضاح المكنون**» لإسماعيل باشا البغدادي 2/ 614، و«**مناهل العرفان**» للزرقاني 2/ 69 - 166، و«**مقدمة كتاب الناسخ والمنسوخ**» لقتادة بقلم حاتم الضامن (معاصر)، و«**معجم الدراسات القرآنية**» لابتسام الصفار 622 - 636، و«**معجم مصنفات القرآن الكريم**» لعلي الشواخ 4/ 225 - 247، و«**النسخ في القرآن الكريم**» لمصطفى زيد (بحث نال به مؤلفه شهادة الدكتوراه من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة وطبع في لبنان بدار الفكر 1383هـ/ 1963م)، و«**الآية والنسخ في القرآن**، لمحمد البهي مقال في مجلة الفكر الإسلامي، السنة الثانية العدد (5) سنة 1391هـ/ 1971م، و«**الآية المنسوخة**» ﴿وَعَلَى ٱلَّذِينَ يُطِيقُونَهُۥ فِدْيَةٌ﴾ لمحمد فؤاد عبد الباقي (مقال في مجلة الأزهر المجلد 27، العدد 9، سنة 1375هـ/ 1965م)، و«**النسخ في القرآن الكريم**» لمحمد سعاد جلال (مقال في مجلة الأزهر المجلد 32، العدد 10، سنة 1380هـ/ 1961م)، و«**سورة المزمل وقصة الناسخ والمنسوخ**» لحسن حسين (مقال في مجلة الأزهر المجلد 15، العدد 8، سنة 1363هـ/ 1944م)، و«**نظرية النسخ في الشرائع السماوية**» لشعبان محمد إسماعيل (طبع في القاهرة على مطابع الدجوي سنة 1397هـ/ 1977م)، و«**رسالة في مباحث النسخ**» لمحمد السيد يوسف أباظة (رسالة بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة 1359هـ/ 1941م)، و«**القول السديد في تفسير آيات النسخ والطلاق والربا في القرآن المجيد**» لمحمد الحسيني الظواهري (طبع في القاهرة بمطبعة مصر سنة 1359هـ/ 1940م)، و«**النسخ بحث وتحليل**» للشيخ عثمان أحمد مريزق (رسالة بكلية دار العلوم بجامعة القاهرة 1362هـ/ 1943م)، و«**فتح المنان في نسخ القرآن**» لعلي حسن العريض (طبع بمكتبة الخانجي في القاهرة سنة 1393هـ/ 1973م)، و«**النسخ في الشريعة الإسلامية كما أفهمه**» لعبد المتعال الجبري (بحث مقدم لنيل الماجستير بكلية دار العلوم في جامعة القاهرة 1368هـ/ 1949م، أنكر فيه النسخ وطبع في القاهرة بدار الجهاد سنة 1380هـ/ 1960م)، و«**النسخ بين الإثبات والنفي**» لمحمد محمود فرغلي (طبع في القاهرة بدار الكتاب الجامعي سنة 1396هـ/ 1976م)، و«**الأدلة** =

وتقدّم في فصل «تنجيم القرآن وأسراره»[1] أن الوحي لم يفاجىء المؤمنين بالتشريع، بل نزل نجوماً على قلب النبي ﷺ، يتدرّج مع الأحداث والوقائع، وأن هذا التدرج تناول العادات الشعورية والتقاليد الاجتماعية التي آثر الإسلام أن يقف منها موقف المتمهّل المتريث مؤمناً بأن البطء مع التنظيم خير من العجلة مع الفوضى!

ولدى تقصّينا المراحل المتعاقبة في مَكِيِّ القرآن ومدَنيِّه، كانت حاجتنا ماسة إلى علم قرآني يلقي الضوء ساطعاً على هذه الخطوات، ويعين على تتّبعها ورسمها بدقة بالغة: وهو علم الناسخ والمنسوخ الذي يمكننا أن نعده ضرباً من ضروب التدرُّج في نزول الوحي، فمعرفتنا بما صح من وجوهه تيسّر علينا تعيين السابق والمسبوق من النوازل القرآنية، وتظهرنا على جانب من حكمة الله في تربية الخلق، وتقفنا على مصدر القرآن الحقيقي: وهو الله رب العالمين؛ لأنه يمحو ما يشاء ويثبت، ويرفع حكماً ويبدل آخر، من غير أن يكون لأحد من خلقه عمل في ذلك ولا شأن، حتى ولا خاتم النبيين نفسه.

فما هو تعريف النسخ، وما هي أقسامه، وما حِكْمةُ وقوعه في القرآن الكريم؟

تعريف النسخ:

النسخ في اللغة يطلق بمعنيين:

المعنى الأول: الإبطال والإزالة، كقولهم نَسَخَتِ الشمسُ الظِلَّ: أزَالَتْهُ.

المعنى الثاني: النقل، ومنه نسختُ الكتاب أي نقلته من كتاب آخر.

والمُراد بالنسخ بالاصطلاح الشرعي: رَفْعُ الشارعِ حُكْماً منه مُتقدِّماً بحُكْمٍ منه مُتَأخِّر[2].

وهذا العلم هام لدارس القرآن الكريم، وقد قال الأئمة: «لا يجوز لأحد أن

= **المطمئنة على ثبوت النسخ في الكتاب والسنة**» لعبد الله مصطفى العريس (طبع في لبنان بمكتبة الحياة 1407هـ / 1987م)، و«**دراسات الإحكام والنسخ في القرآن الكريم**»، لمحمد حمزة (طبع في دمشق بدار قتيبة)، **وعلوم القرآن الكريم**، للعتر، ص: 131.

(1) راجع ص: 91.

(2) انظر «**الاعتبار**» للحازمي، ص: 7 – 9.

يُفسِّر كتاب الله إلا بعد أن يعرف منه الناسخ والمنسوخ»[1].

وقد قال عليّ بن أبي طالب لقاصّ: «أتعرف الناسخ من المنسوخ؟ قال: لا، قال: هَلَكْتَ وأهْلَكْتَ»[2].

أقسام النسخ:

وقد قسموا النسخ عدة تقسيمات، أهمها بالنسبة لدراستنا هنا هذه الأقسام:

أ ـ نسخ الحكم مع بقاء التلاوة، وهو أكثر الأقسام وقوعاً، مثل نسخ آية العدة: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا وَصِيَّةً لِّأَزْوَٰجِهِم مَّتَٰعًا إِلَى ٱلْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ﴾ [البقرة: 240]، فكانت العدةُ للمتوفى عنها زوجها حولاً، ثم نسخت بأربعة أشهر وعشراً: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: 234].

ب ـ نسخ التلاوة مع بقاء الحكم، كما ورد عن عمر رضي الله عنه أنه نزلت آية في رجم الزاني المتزوّج، وقد نسخت التلاوة وبقي الحكم.

جـ ـ نسخ الحكم والتلاوة معاً مثل حديث السيدة عائشة: «كان فيما نزلَ من القرآن: (عشر رضعات معلومات يحرّمن)، ثم نُسِخَ بِخَمْسِ رَضعاتٍ مَعْلُومات يُحَرِّمْن»، والجملة الأولى منسوخة التلاوة والحكم، أما الجملة الثانية فهي من منسوخ التلاوة فقط، وحكمها باق عند الشافعية، ولم يعمل المالكية والحنفية بهذه الرواية من أصلها. ومما يؤيّدهم في ذلك أن الرواية غير متواترة، ولا تثبت قرآنية شيء إلا بالتواتر، كما لا يُنسخ القرآن إلا بالتواتر، وهذا الاعتراض يَرِدُ على ادّعاء قرآنية آية الرَّجم.

د ـ نسخ القرآن بالقرآن كما سبق ذكره.

هـ ـ نسخ القرآن بالسنة

---

(1) «الإتقان» 2/ 20.
(2) «الإتقان»2 / 20.

obeikandl.com

و ـ أو العكس. مثل نسخ استقبال بيت المقدس بالتوجه إلى القبلة: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾ [البقرة: 144] فهذا نسخ للسنة بالقرآن.

حكمة وقوع النسخ:

يحتل النسخ مكانة هامة في تاريخ الأديان، لما كان يتحقق به من نقل الإنسان إلى الدين الذي يأتي به كل نبي بعد النبوات التي قبله، حتى جاءت شريعة الإسلام أكمل الشرائع وخاتمة الشرائع جميعاً، فكان من حكمته سبحانه أن نسخ بها الشرائع والأديان السابقة كلها.

وتفصيل هذا وشرحه: «أن النوع الإنساني تقلّب كما يتقلّب الطفل في أدوار مختلفة، ولكل دور من هذه الأدوار حال تناسبه غير الحال التي تناسب دوراً غيره، فالبشر أول عهدهم بالوجود كانوا كالوليد أول عهده بالوجود سذاجة وبساطة، وضعفاً وجهالة، ثم أخذوا يتحوّلون من هذا العهد رويداً رويداً، ومرّوا في هذا التحول أو مرّت عليهم أعراض متباينة، من ضآلة العقل، وعماية الجهل، وطيش الشباب، وغشم القوة على تفاوت في هذا بينهم، اقتضى وجود شرائع مختلفة لهم تبعاً لهذا التفاوت.

حتى إذا بلغ العالم أوان نضجه واستوائه وربطت مدنيته بين أقطاره وشعوبه جاء هذا الدين الحنيف ختاماً للأديان، ومتمماً للشرائع، وجامعاً لعناصر الحيوية ومصالح الإنسانية ومرونة القواعد، جمعاً وَفَّقَ بين مطالب الروح والجسد، وآخى بين العلم والدين، ونظّم علاقة الإنسان بالله وبالعالم كله من أفراد وأُسَر وجماعات وأمم وشعوب وحيوان ونبات وجماد، مما جعله بحق ديناً عاماً خالداً إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها»[1].

لذلك لم يقع خلاف بين الأمم حول النسخ ولا أنكرته ملّة من الملل قط، إنما خالف في ذلك اليهود، فأنكروا جواز النسخ عقلاً، وبناء على ذلك جحدوا النبوّات بعد موسى عليه السلام، وتذرّعوا بذلك الزعم لإنكارهم نُبُوّة عيسى، ونُبُوَّة سيدنا محمد ﷺ.

وأثاروا الشبهة فزعموا أن النسخ مُحَالٌ على الله تعالى، لأنه يدلُّ على البَدَاءِ، أي

(1) «مناهل العرفان» 2/ 90 - 91.

ظُهورِ رأيٍ بعد أن لم يكن، كذا استصواب شيء عُلِمَ بعد أن لَمْ يُعْلمْ، والبَدَاءُ مستحيل في حق الله تعالى، لأنه واجب له تعالى لذاته وصف العلم المحيط بكل شيء من الأزل إلى الأبد.

والجواب عن هذا من وجوه:

1 ـ قال الإمام الغزالي[1] يرد هذه الشبهة محتكماً إلى فهم معنى النسخ فقال: وهو عبارة عن الخطاب الدالّ على ارتفاع الحكم الثابت المشروط استمراره بعدم لحوق خطاب يرفعه، وليس من المحال أن يقول السيد لعبده: «قم»، ولا يبين له مدة القيام، وهو يعلم أن القيام مقتضى منه إلى وقت بقاء مصلحته في القيام، ويعلم مدة مصلحته ولكن لا ينبّه عليها، ويفهم العبد أنه مأمور بالقيام مطلقاً وأن الواجب الاستمرار عليه أبداً إلا أن يخاطبه السيد بالقعود، فإذا خاطبه بالقعود قعد ولم يُتَوهم بالسيّد أنه بدا له أو ظهرت له مصلحة كان لا يعرفها والآن قد عرفها، بل يجوز أن يكون قد عرف مدة مصلحة القيام وعرف أن الصلاح في أن لا ينبّه العبد عليها ويطلق الأمر له إطلاقاً حتى يستمرّ على الامتثال، ثم إذا تغيرت مصلحته أمره بالقعود.

2 ـ إن القرآن الكريم ردّ على خرافة هؤلاء في شأن النسخ في قوله تعالى في سورة البقرة: ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: 106].

فبيّن أن مسألة النسخ ناشئة عن مداواة وعلاج مشاكل الناس، لدفع المفاسد عنهم وجلب المصالح لهم، لذلك قال: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾، ثم عقب فقال: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٠٦﴾ أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ ﴿١٠٧﴾﴾ [البقرة: 106-107].

3 ـ الاستدلال بوقوع النسخ بين شرائع الأنبياء من لدن آدم إلى موسى عليه السلام، واليهود يعترفون بذلك وبنبوّة هؤلاء الأنبياء الذين نسخت شرائعهم أحكاماً من شرائع أنبياء قبلهم، فلماذا يجحدون بنبوّة عيسى ومحمد عليهما السلام مُتذرّعين بزعم استحالة النسخ؟!

---

(1) الغزالي، «الاقتصاد في الاعتقاد» أوّل القطب الرابع، ص: 99.

وقد ذكر العلماء من النسخ الذي وقع في الشرائع السابقة أمثلة: منها أنه أُحِلّ لآدم تزويجُ بناته من بنيه من بطن آخر ثم حُرِّمَ ذلك. وأباح الله تعالى لنوح بعد خروجه من السفينة أكل جميع الحيوانات، ثم نَسَخَ حُلّ بعضها. وكان نكاح الأختين مباحاً لإسرائيل وبنيه، وقد حرّم ذلك في شريعة التوراة وما بعدها، فإن كانوا صادقين في إيمانهم بالتوراة فواجب أن يُقِرّوا بالنسخ، ويؤمنوا بالنبي ﷺ، وإلّا فإنّهم يكونون مُكذِّبين للتوراة نفسها.

التاليف في الناسخ والمنسوخ:

هذا ولأهمية هذا العلم فقد عني به العلماء في تفاسيرهم، وفي كتب أحكام القرآن، فبينوا ما وقع من النسخ في بعض الآيات، بل أفرده بالتصنيف في كتب خاصّة خلائق لا يُحصَوْن كما قال السُّيوطي[1]، منهم أبو عُبَيْد، القاسم بن سَلاّم (ت 224 هـ)، وأبو داود السجستاني (ت 279 هـ)، وأبو جعفر النحاس (ت 338 هـ)، وابن الأنباري، أحمد بن إسحاق (ت 318 هـ) وابن العربي (ت 543 هـ)، ومكّي ابن أبي طالب (ت 437 هـ) وآخرون».

إلا أنا ننبّه إلى أنه وقع تَوسُّع كثير من بعض العلماء في النسخ، فقالوا بنسخ آيات كثيرة لا دليل على نسخها، وكثير من ذلك من باب التخصيص لا النسخ.

ومن أمثلة ذلك: قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: 3]، ادُّعِيَ في هذه الآية وأمثالها أنها نُسِخَتْ بآية فرض الزكاة. وليس ذلك بسديد لأن الآية عامّة في النفقات الواجبة والمندوبة والمباحة، وهي بهذا لا تعارض آية فرض الزكاة، فمن أين يأتي النسخ؟!

ومن أشهر الأمثلة وأهمها ادّعاء أن آية السيف[2] ـ أي وجوب الجهاد ـ قد

---

(1) «الإتقان» 2/20.

(2) وهي قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة: 5] قال ابن كثير: وهذه الآية الكريمة هي آية السيف التي قال فيها الضحّاك: «إنها نسخت كلّ عهد بين النبي ﷺ وبين أحد من المشركين وكلّ عقد، وكل مُدّة». وقال ابن عباس في هذه الآية: «أمره الله تعالى أن يضع السيف فيمن عاهد إن لم يدخلوا في الإسلام، ونقض ما كان سمّى لهم من العهد والميثاق، وأذْهَبَ الشرط الأول».

نَسَخَتْ: ﴿خُذِ ٱلۡعَفۡوَ وَأۡمُرۡ بِٱلۡعُرۡفِ وَأَعۡرِضۡ عَنِ ٱلۡجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف: 199] ونحوها من الآيات كما نجده في «**تفسير الجلالين**».

وليس ذلك مقبولاً؛ لأن آية الجهاد والشدّة في حال علاقات الحرب، والآيات الأخرى تأمر بالإحسان ومكارم الأخلاق في حال السلم، فكل من الآيات خاص بوقته المناسب له، وليس ذلك من النسخ. وغير ذلك مما يوجب التنبُّه والتحقُّق في هذا الأمر الخطير.

obeikandi.com